كلية اللغة العربية بأسيوط
المجلة العلميـة

من أسرار التلاؤم بين طرفي التشبيه في صحيح مسلم

(كتاب الفتن أنموذجا)

إعداد

د/ أحمد حسن علي محمد

أستاذ البلاغة المساعد في كلية اللغة العربية بجرجا

(العدد الثالث والثلاثون – الجزء الثالث ٢٠١٤م)

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله الذي امتن على عباده المؤمنين ببعثة الرسول الصادق الأمين، فأخرجهم به من ظلمات الكفر والجهل والارتياب إلى نور الإيمان والعلم واليقين، وأخبرهم على لسانه بما كان وما يكون إلى يوم الدين، وأخبرهم عن الدار الآخرة بأكمل إيضاح وأعظم تبيين، فمن آمن به وبما جاء به؛ فهو من المفلحين، ومن كان في ريب مما صح عنه؛ فهو من الخاسرين.

أما بعد ....

فإن التّشبيه يُعد وسيلَة بيانية بليغة من الوَسائل التي احتلت مكانة عالية في لغة العرب، بل في لغة البشر جميعًا، وذلك لما له من أثر كبير في تمكين المعنى في النّفْسِ، وتجليته في ذهن السامع بما له من دلالة قوية في الإبلاغ والإيضاح، فهو وسيلة تصويرية مؤثِّرة في المعنى وعاملَة على تجلِيَته وتقويَتِه، وقد بيّن ذلكَ شيخ البلاغَة عبد القاهر الجرجاني في تفريقِه بين المعنى البسيطِ الذي يساقُ من غَير تَصوير، وبَين المَعنى الذي سُلك به مسْلَكَ التّشبيهِ حين قال:«وإن أردتَ اعْتِبار ذلِك في الفنِّ الذي هو أكرمُ وأشرفُ، فقابِلْ بينَ أنْ تقولَ: «إنّ الذي يعظُ ولا يتّعِظُ يضُرُّ بنفْسِهِ من حيثُ ينفعُ غيرَه»، وتقتصِرَ عليهِ، وبينَ أنْ تذكُرَ المَثَلَ فيهِ على ما جاءَ في الخبرِ من أنّ النّبيَّ صلى الله عليه وسلم قالَ: «مثَلُ الذي يعلمُ الخَيْرَ ولا

يَعْمَلُ بهِ مثَلُ السِّراجِ الذي يُضيءُ للنّاسِ ويُحرِقُ نفْسَه»، ويُروى «مثَلُ الفتيلةِ التي تُضيءُ للنّاسِ وتُحرِقُ نفْسَها" (١)

والبَيان النَّبوِي الكريم يتّخِذ هذِه الوسيلَة الطبيعِيةَ الفطريةَ لمخاطبة النفس البشرِيّة المُؤْمِنةِ، ويكثر من إيرادها في أعقاب المعاني التي يريد تمكينها في قلب السامع. فهي أداة بليغة لا تُرادُ لذاتِها ولكِن لِما وَراءَها مِن مَقاصِدَ دلالِيّة عظيمة.

ولما كان الأمر كذلك، جاءت صِيَغ التشبيه وتراكيبها محكَمة البناءِ، متلائمة النسج، جيدة السبك، قوية في التعبير عن المعنى المقصود؛ بل ربما تخفي وراءها أسرارا لا تظهر إلا بعد تدقيق وإعادة نظر، وإطالة فكر، فالصورة التّشبيهيةَ في الحديث النبوي لا يُؤْتى بها لمجرد إقامة علاقة بَينَ المُشبه والمُشبّه به، فالبيان النبوي مليء بالإيحاءات والظلال التي تستدعي طول الوقوف في محرابه والاقتباس من أنواره .

من هنا جاءت فكرة هذا البحث، فالدراسة لا تُعنى ببيان طرفي التشبيه والأداة المستعملة ووجه الشبه، وهل هو مفرد أم مركب، حسيٌّ أم عقلي، بقدر ما تحاول الوقوف عند الأسرار المتوارية خلف اختيار هذه الصورة التشبيهية لتوضيح المعنى المقرونة به، ومدى الملاءمة بين الطرفين، وهل هناك أسباب خلف اختيار المشبه به كطرف ثان من أطراف التشبيه؟.

وقد وقع اختياري على أحاديث النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ في كتاب الفتن، وذلك لما وجدته في هذا الباب من تقريب لمعان وأمور مستغربة تحدث بعد زمن

(١) أسرار البلاغة لأبي بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الفارسي الأصل، الجرجاني الدار(ص١١٨)قرأه وعلق عليه: محمود محمد شاكر ط/ مطبعة المدني بالقاهرة، دار المدني بجدة .

النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لذا فهي تجد استغرابا واستعظاما من السامع، فهي تحتاج إلى مزيد بيان وقدر أكبر من التوضيح.

وقد قمت بتقسيم الدراسة إلى **مقدمة** ، **ومبحثين** ، **وخاتمة** .

المبحث الأول: جاء تحت عنوان: " دقة التلاؤم في حديثه صلى الله عليه وسلم عن الفتن وأحوال الناس فيها " ، وذلك من خلال حديث، عرض الفتن على القلوب ، وحديث الفتن كقطع الليل، وحديث فتن الشبهات.

المبحث الثاني : وكان تحت عنوان: " دقة التلاؤم في سياق الحديث عن فتن آخر الزمان وعلامات الساعة " ، وتناولت فيه حديث رفع الأمانة من صدور الرجال وحديث صفة المسيح الدجال، وحديث وصف ردم يأجوج ومأجوج، حديث قرب الساعة، وحديث ، ما بين النفختين.

الخاتمة: وتكلمت فيها عن أهم الملامح الأسرار التي اتسمت بها أحاديث الفتن والتي وضحت عندي من خلال هذه الدراسة.

المبحث الأول

دقة التلاؤم في حديثه صلى الله عليه وسلم عن الفتن وأحوال الناس فيها

١- عرض الفتن على القلوب :

"حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ نُمَيْرٍ حَدَّثَنَا أَبُو خَالِدٍ - يَعْنِى سُلَيْمَانَ بْنَ حَيَّانَ - عَنْ سَعْدِ بْنِ طَارِقٍ عَنْ رِبْعِىٍّ عَنْ حُذَيْفَةَ قَالَ كُنَّا عِنْدَ عُمَرَ فَقَالَ أَيُّكُمْ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- يَذْكُرُ الْفِتَنَ فَقَالَ قَوْمٌ نَحْنُ سَمِعْنَاهُ. فَقَالَ لَعَلَّكُمْ تَعْنُونَ فِتْنَةَ الرَّجُلِ فِي أَهْلِهِ وَجَارِهِ قَالُوا أَجَلْ. قَالَ تِلْكَ تُكَفِّرُهَا الصَّلاَةُ وَالصِّيَامُ وَالصَّدَقَةُ وَلَكِنْ أَيُّكُمْ سَمِعَ النبي -صلى الله عليه وسلم- يَذْكُرُ الْفِتَنَ التي تَمُوجُ مَوْجَ الْبَحْرِ قَالَ حُذَيْفَةُ فَأَسْكَتَ الْقَوْمُ فَقُلْتُ أَنَا. قَالَ أَنْتَ لِلَّهِ أَبُوكَ. قَالَ حُذَيْفَةُ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- يَقُولُ « تُعْرَضُ الْفِتَنُ عَلَى الْقُلُوبِ كَالْحَصِيرِ عُودًا عُودًا فأي قَلْبٍ أُشْرِبَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ وأي قَلْبٍ أَنْكَرَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ بَيْضَاءُ حَتَّى تَصِيرَ عَلَى قَلْبَيْنِ عَلَى أَبْيَضَ مِثْلِ الصَّفَا فَلاَ تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ وَالآخَرُ أَسْوَدُ مُرْبَادًّا كَالْكُوزِ مُجَخِّيًا لاَ يَعْرِفُ مَعْرُوفًا وَلاَ يُنْكِرُ مُنْكَرًا إِلاَّ مَا أُشْرِبَ مِنْ هَوَاهُ ". (١)

يقول ابن القيم في شرح هذا الحديث:" شبه عرض الفتن على القلوب شيئا فشيئا كعرض عيدان الحصير، وهي طاقاتها شيئا فشيئا، وقسم القلوب عند عرضها عليها إلى قسمين: قلب إذا عرضت عليه فتنة أشربها كما يشرب السفنج الماء،

(١) صحيح مسلم (أبو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري) ٨٩/١ط : دار الجيل بيروت.

فتنكت فيه نكتة سوداء، فلا يزال يشرب كل فتنة تعرض عليه حتى يسود وينتكس، وهو معنى قوله: "كالكوز مجخيا" أي: مكبوبا منكوسا، فإذا اسود وانتكس عرض له من هاتين الآفتين مرضان خطران متراميان به إلى الهلاك.

أحدهما: اشتباه المعروف عليه بالمنكر فلا يعرف معروفا ولا ينكر منكرا، وربما استحكم عليه هذا المرض حتى يعتقد المعروف منكرا والمنكر معروفا، والسنة بدعة والبدعة سنة، والحق باطلا والباطل حقا.

والثاني: تحكيمه هواه على ما جاء به الرسول ـ صلى الله تعالى عليه وآله وسلم ـ وانقياده للهوى واتِّباعه له.

وقلب أبيض قد أشرق فيه نور الإيمان وأزهر فيه مصباحه، فإذا عرضت عليه الفتنة أنكرها وردها، فازداد نوره وإشراقه وقوته، والفتن التي تعرض على القلوب هي أسباب مرضها وهي فتن الشهوات وفتن الشبهات فتن الغي والضلال فتن المعاصي والبدع فتن الظلم والجهل فالأولى توجب فساد القصد والإرادة والثانية توجب فساد العلم والاعتقاد" (١)

وقد اشتمل الحديث هنا على ثلاث صور تشبيهية أعانت على فهم المعنى وتقريبه إلى ذهن المتلقي.

أولى هذه الصور قوله:" تُعْرَضُ الْفِتَنُ عَلَى الْقُلُوبِ كَالْحَصِيرِ عُودًا عُودًا"أي تظهر الفتن للقلوب وتبسط وتتوالى واحدة بعد أخرى كتوالي أعواد الحصير عودا بإزاء عود وقطعة بعد قطعة، والمقصود هنا من هذه الصورة إظهار تنوع الفتن

(١) إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي المعروف بابن القيم ١٢/١ط: دار المعرفة – بيروت الطبعة الثانية ، ١٣٩٥ – ١٩٧٥ تحقيق : محمد حامد الفقي .

وتتابعها على قلوب العباد، ووجه الشبه: الكثرة والتتابع والتلاصق، وهي صورة من التشبيه المركب الذي يصور تشبيه هيئة بهيئة.

ولعل السر في اختيار المشبه به (كَالْحَصِيرِ عُودًا عُود) في تصوير تتابع الفتن هو التحذير من التهاون في النظر إلى صغر الفتن وعدم تقدير خطرها، والتهاون في درئها وإبعادها، والتي تشبه أعواد الحصير الهشة الضعيفة التي يستهين بها الناظر حين يراها مبعثرة، لكنَّ اجتماعها في القلوب يقوي بعضُها بعضا، كما تَقوى الحصير بجمع أعوادها وانضمام بعضها إلى بعض، فتصير شيئا ذا قيمة بعد أن كانت أعوادا ضعيفة متناثرة. كما أن التشبيه بالحصير يصور كثرتها وتتابعها، فالأعواد التي تستخدم في نسج الحصير كثيرة لا يحصيها الناسج، لكنه يعمل على ضم بعضها إلى بعض في عمل متواصل، كذلك الفتن كثيرة ومتنوعة، منها فتن للشهوات، وفتن للشبهات، وفتن الأهواء الفاسدة، وغير ذلك كثير.

يساعد على تصور هذا التنوع بناء صيغة العرض لما لم يسم فاعله(تُعرض) ليدل على كثرة مداخل الفتن إلى القلوب وتعدد مصادرها فليس لها مصدر واحد يمكن أن يتقيه الإنسان، فمنافذ الفتن وحبائل الشيطان كثيرة ومتعددة؛ لذا ناسب أن يستخدم الفعل المبني للمجهول للإيحاء بتعدد المصادر لهذه الشهوات، فضلا عما في اصطفاء صيغة المضارع من الدلالة على كثرتها وتجدد تكرارها مرة بعد مرة ، وهو ما أكده ونصّ عليه صراحة بعدُ قوله :"عودا عودا" إبلاغا في بيان خطرها والتنفير منها.

كما أن اختيار القلب لعرض الفتن في قوله: (عَلَى الْقُلُوبِ) لأنه المتحكم في الجسد كله، والجوارح تبع له، فالقلب كالملك والجوارح كالخدم والجنود، بل إنه المكان الوحيد في الجسد الذي يستقر فيه الإيمان أو الكفر، ومصداق ذلك قوله تعالى:{إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمانِ} [النَّحْل: ١٠٦].

وقوله :(عُوْدا عُوْدا) ورد في ضبطها وجهان آخران يؤكدان شدة خطر هذه الفتن على القلوب، الوجه الأول (عَوْدا عَوْدا) بفتح العين وسكون الواو ومعناها التكرار للفتنة مرة بعد مرة، والوجه الثاني:(عَوْذا عَوْذا) بفتح العين وسكون الواو وذال معجمة، بمعنى الدعاء(أي نسألك أن تعيذنا منها).

يقول الإمام النووي:" هذان الحرفان مما اختلف في ضبطه على ثلاثة أوجه أظهرها وأشهرها: عُوْدا عُوْدا (بضم العين وبالدال المهملة) والثاني: بفتح العين وبالدال المهملة أيضا، والثالث: بفتح العين وبالذال المعجمة ولم يذكر صاحب التحرير غير الأول، وأما القاضي عياض فذكر هذه الأوجه الثلاثة عن أئمتهم واختار الأول أيضا، قال واختار شيخنا أبو الحسين بن سراج فتح العين والدال المهملة، قال ومعنى تعرض أنها تلصق بعرض القلوب أي: جانبها كما يلصق الحصير بجنب النائم ويؤثر فيه شدة التصاقها به، قال ومعنى عودا عودا أي: تعاد وتكرر شيئا بعد شيء. قال بن سراج ومن رواه بالذال المعجمة فمعناه سؤال الاستعاذة منها، كما يقال: غفرا، غفرا، وغفرانك، أي: نسألك أن تعيذنا من ذلك وأن تغفر لنا" [1]

وهاتان الروايتان تساعدان على فهم المعنى وتأكيده في النفوس، فالأولى: (عَوْدا عَوْدا) تؤكد أن الفتن ـ على كثرتها وتنوعها ـ تعاد وتكرر على القلوب مرات عديدة، وهذا يثير الانتباه والتيقظ حتى لا يتعودها القلب فتسهل عليه فيتشربها.

والثانية:(عَوذا عَوذا) تنذر بالخطر وشدة مداهمة الفتن للقلوب ، حتى إنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ يستعيذ من خطرها ويكرر ذلك مرتين، ليقرع مسامع

(١) شرح النووي على صحيح مسلم (أبو زكريا يحيى بن شرف بن مري النووي) ١٧٢/٢ دار إحياء التراث العربي – بيروت الطبعة الطبعة الثانية ، ١٣٩٢هـ.

المخاطبين بهذه الاستعاذة حتى لا يستهين بخطرها أحد، وليؤكد على أهمية اللجوء إلى الله تعالى والاستعانة به في دفعها، فالإنسان ضعيف أمام الفتن ويحتاج إلى معونة منه سبحانه وإعاذة.

وبعد بيان حال الفتن مع القلوب وكثرتها وتكرارها، بين حال القلوب معها، ما بين قلب أنكرها فتنكت فيه نكتة بيضاء، وبين قلب أشرب هذه الفتن وتقبلها فتنكت فيه نكتة سوداء ، حتى تخلص القلوب إلى نوعين.

وهنا تأتي الصورة التشبيهية الثانية: وهي قوله:

" حَتَّى تَصِيرَ عَلَى قَلْبَيْنِ عَلَى أَبْيَضَ مِثْلِ الصَّفَا فَلاَ تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ "

هذه صفة قلب المؤمن الذي أنكر الفتن ولم يتشربها فهو قلب أبيض، قوي متماسك يملؤه نور الإيمان الذي ينفي عنه خبث هذه الفتن، وقد حذف الموصوف هنا وهو القلب للعلم به،إذ فهم من سياق الجملة السابقة، والتقدير: (قلب أبيض مثل الصفا) فقد أشار بعض علماء الحديث إلى أن التشبيه هنا يتعلق بلون القلب فقالوا: "مثل الصفا بالقصر أي مثل الحجر المرمر الأملس من غاية البياض .. أَيْ: مماثِلًا ومشابهًا لِلصَّفا في النُّور والبهاء " [1] وعلى هذا الرأي يكون تشبيه القلب من حيث وصف بياضه فهو كالمرمر الأبيض يتلألأ نورًا وبهاءً. وقد بين الإمام الطيبي سرَّ اختيار الصفا في المشبه به فقال:

"وإنما ضرب المثل به؛ لأن الأحجار إذا لم تكن معدنية لم تتغير بطول الزمان، ولم يدخلها لون آخر؛ لاسيما النوع الذي ضرب به المثل، فإنه أبدًا على البياض

(١) الملا على القاري في مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح ٣٣٧٨/٨ دار الفكر، بيروت – لبنان الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ – ٢٠٠٢م

الخالص الذي لا تشوبه كدرة".[١] وعلى هذا يكون وجه الشبه هو البياض الخالص الذي لا يتغير بطول الزمن.

وهذا يتناسب مع بياض قلب المؤمن الذي لا يحمل غلًّا ولا حقدًا ولا حسدًا لأحد من المسلمين، فهو قلب يشع منه نور الإيمان، ونور الصفح والعفو عن الزلات، واختلاق الأعذار للمقصرين، فلم تؤثر فيه أمراض القلوب التي ابتلي بها المنافقون، وغيرهم ممن لا تصفو قلوبهم للمؤمنين، ولا تشعر بالرضا.

لكن الفريق الآخر من العلماء أشار إلى أن التشبيه بالصفا ليس لما تقدم من البياض، وإنما من حيث شدة الصفا وصلابته وملاسته، فلا يعلق به شيء، وهم بذلك قد أضافوا بعدًا آخر للحديث، فالبياض صفة ملازمة للقلب خارجة عن التشبيه، لأنها جاءت في الطرف الأول وهو المشبه في قوله (عَلَى أَبْيَضَ مِثْلِ ..) ثم جاء الطرف الثاني ـ المشبه به ـ (الصفا) ليبن صفة أخرى في هذا القلب وهي صعوبة أن يعلق به شيء من هذه الفتن لاستوائه وسلامته من الخلل.

يقول القاضي عياض:" ليس تشبيهُهُ بالصفا لما تقدم من بياضه، لكن أخذ في وصف آخر من شدته على عقد الإيمان وسلامته من الخلل، وأن الفتن لم تلصق به، ولم تؤثر فيه كالصفا، وهو الحجر الأملسُ الذي لا يعلق به شيء ، بخلاف الآخر" [٢]

---

(١) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح المسمى بـ (الكاشف عن حقائق السنن) ١١/ ٣٤٠٢ تحقيق د. عبد الحميد هنداوي ط: مكتبة نزار مصطفى الباز ،مكة المكرمة – الرياض.

(١) . شَرح صحِيح مُسلِمِ المسمى إِكمَالُ المُعْلِمِ بفَوَائِدِ مُسْلِمِ لِلقاضِى عياض تحقيق الدكتور يحْيَى إِسْمَاعِيل .ط: دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع، مصر الطبعة: الأولى، ١٤١٩ هـ – ١٩٩٨ م

ولعل الرأي الثاني هو الأوفق والأليق بهذه الصورة لمناسبته لسياق الحديث في بيان أحوال القلب مع الفتن؛ فقد جعل البياض وصفا ثابتا للقلب، ثم زاد عليه وصفا آخر يقوي هذا البياض، فأضاف صلابة القلب وملاسته وعدم تأثره بدخان الفتن وأدران المعاصي، فكأنه جعل صورة هذا القلب في مقابل الصورة الأخرى للقلب المشرب بالفتن، فتراه عندما تكلم عن القلب الذي يقبل الفتن قال(أُشربها) فكأنه شبهه بالإسفنج، في لينه وتخلخله وامتصاصه لأي شيء سائل، فناسب أن يكون تشبيه القلب الذي لا يقبل هذه الفتن ويردَّها بـ (الصفا) في قوته وملاسته، وأنه لا يعلق به شيء، وإن علق به شيء فمن السهل إزالته، فمجرد نزول بعض قطرات الماء تزيل ما علق به من أوساخ وأدران، والله عز وجل قد ضرب مثلا لصدقة المرائي وعدم الانتفاع من ورائها وسرعة زوالها بالصفوان الذي علته بعض الأتربة، فلما نزل عليه المطر زال عنه التراب وبقي الصفوان صلدا أملسا، قال الله تعالى:{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ}.[البقرة ٢٦٤]

"أي مثل ذلك المرائي بإنفاقه ، كمثل الحجر الأملس الذي عليه شيء من التراب ، يظنه الظَّانُّ أرضا طيبة منبتة،(فأصابه وابل فتركه صلدا) أي: فإذا أصابه مطر شديد أذهب عنه التراب، فيبقى صلدا أملس ليس عليه شيء من الغبار أصلا."[1]

(١) صفوة التفاسير لمحمد بن علي الصابوني ١٥٣/١ط: دار الصابوني للطباعة والنشر والتوزيع – القاهرة.

إذن: فتشبيه القلب ـ الذي لا يقبل هذه الفتن وينكرها ـ بالصفا في عدم علوق أي شيء به لملاسته واستواء سطحه ـ مع مراعاة البياض في أصل القلب ـ هو الأنسب، بدليل وصفه في الجملة التي تليه بقوله" فَلاَ تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ" فأكد أنه لا يقصد البياض المحض؛ إنما يقصد البياض الممزوج بالقوة والصلابة والملاسة؛ إذ البياض وحده دون قوة وصلابة يضره أقل شيء ويؤثر فيه، فالذي لا يتضرر هو الشيء القوي الذي ليس فيه خلل، وهو ما يتناسب مع التشبيه بالصفا الأملس.

أو لعل الصفا المقصود في جهة المشبه به هو الصفاء، أي(الطهر والنقاء)،وقد قصر الممدود تخفيفًا، وعبر بالمصدر مبالغة في نصاعة هذا القلب وخلوه من أي شائبة تكدره فشبه القلب النقي الطاهر الموصوف بالبياض، بالصفاء والنقاء، ليكتسب القلب فوق وصفه بالبياض، صفة النصاعة والرقة، وهذا من إشعاعات البلاغة النبوية التي كلما قلبت فيها زادتك نورا وضياءً.

ثم تأتي الصورة التشبيهية الثالثة لترسم صورة النوع الآخر من القلوب، وهو القلب الذي تشرَّب الفتن وخالطت أجزاءه فاسودَّ وانتكس، لا يقبل الحق ولا يعترف به، إلا ما صادف هواه وانسجم مع نفسه الخبيثة، ترى ذلك في قوله:

"وَالآخَرُ أَسْوَدُ مُرْبَادًّا كَالْكُوزِ مُجَخِّيًا لاَ يَعْرِفُ مَعْرُوفًا وَلاَ يُنْكِرُ مُنْكَرًا إِلاَّ مَا أُشْرِبَ مِنْ هَوَاهُ"

فصورة القلب الأسود هنا تقابل الصورة السابقة ـ صورة القلب الأبيض القوي ـ فيظهر قبحها وشدة استهجانها عند تقابل الصورتين،يضاف إلى هذا السواد المتأصل في القلب غبرة ناتجة عن أثار الذنوب والمعاصي، فزادت السواد قبحا فوق

قبحه، فالرُّبْدَةُ لَون بين السواد والغبرة ومنه قيل للنعام رِبْدٌ جمع رَبْداءَ [1]،وإنما وصف القلب بالربدة؛ لأنه أنكر وأقبح ما يوجد من السواد، وسواد القلب وربدته شيء معنوي، فهو تصوير لقبحه ونكارته، وليس وصفا حسيّا لصورة القلب، فهو تصوير ووصف مستقل، خارج عن الصورة التشبيهية، ثم تأتي الصورة التشبيهية في قوله:

(كَالْكُوزِ مُجَخِّيًا) لتضيف بعدا آخر لنكارة هذا القلب وهو ميله أو انكبابه على وجهه فلا سبيل إلى وصول نور الحق إليه لعله يبدد بعضا من ظلمته،أو يزيح عنه من غبرته، قال الهروي: "المُجَخِّي، المائلُ... وقال أبو عُبَيْد: المجخِّي: المائلُ، ولا أَحْسِبُهُ أراد بميله إلا أنه منخَرِقُ الأسفلِ، شبَّه به القلبَ الذي لا يَعِي خيرًا ولا يَثْبُتُ فيه، كما لا يثبُتُ الماءُ في الكوز المنخرق، والمعنى: مائلا عَن الاسْتقَامَة منكوسا ".[2]

فالقلب الذي تشرب الفتن وامتلأ بها تراه دائما معرضا عن الحق لا يقبل منه شيئا، مثله في ذلك مثل الكوز المنكوس مهما صُبَّ عليه الماء لا يثبت فيه أبدا، وهي صورة واضحة في الأذهان قريبة للتصور؛ لأن الكوز لا يخلو منه بيت، ومتى

(١) راجع النهاية في غريب الحديث والأثر لأبي السعادات المبارك بن محمد الجزري ٢/ ٤٥٥،ط: المكتبة العلمية – بيروت ، تحقيق : طاهر أحمد الزاوي – محمود محمد الطناحي ولسان العرب مادة (ربد) ١٧٠/٣، لمحمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري ط: دار صادر بيروت الطبعة الأولى.

(٢) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم،لأبي حَفْصٍ عُمَرَ بنِ إبراهيمَ الحافظ ، الأنصاريُّ القرطبيُّ ٢٩٢/١، وكشف المشكل من حديث الصحيحين لجمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (المتوفى: ٥٩٧هـ) تحقيق: علي حسين البوابط: دار الوطن – الرياض.

حاول الإنسان إفراغ الماء فيه وهو مقلوب على وجهه فمحال أن يمتلئ، هكذا القلب الذي انتكس بالفتن لا يمكن أن يقبل الحق أو يدخل إليه.

وبذلك تكون الصورة التشبيهية بهذه الهيئة قد أقرت في الأذهان استحالة وصول الحق إلى هذا القلب بأي صورة أو بأي طريق، ولا سبيل إلى وصول النور إليه؛ لأن منافذ النور فيه قد انتكست وتعطلت، بل انقلبت على وجهها لتؤكد هذه الاستحالة ، يقول الدكتور الصباغ معلقاً على الصورة:

"إنّ الكأس المنكوس مهما وضعته تحت الماء المنهمر لا يمتلئ ولو بقيت الدهر كلّه، وهو أسود مغبر.....قائم كالح .... ليس مظنة الخير وليس لديه شيء من التفاؤل وتوقع الخير" (١)

ثم زاد في توضيح هذه الاستحالة فوصفه بقوله" لاَ يَعْرِفُ مَعْرُوفًا وَلاَ يُنْكِرُ مُنْكَرًا إِلاَّ مَا أُشْرِبَ مِنْ هَوَاهُ" ليؤكد عدم قابلية القلب للهدى والنور، فقد وضَّحت هذه الجملة كيفية انغلاق هذا القلب وعماه عن قبول الحق . على الرغم من أن القلب محل الذكر ومحل التذكر ومحل الارتباط بالله سبحانه . لكنه إذا ختم عليه تراه لا يقر المعروف ولا يتقيد به، ولا ينكر المنكر ولا يشعر بأي حرج معه، إلا في حالة واحدة، وهي ما وافق هواه واتفق مع مزاجه، والتي أشار إليها الحديث بقوله" إِلاَّ مَا أُشْرِبَ مِنْ هَوَاهُ" فهي جملة من باب تأكيد الذم بما يشبه المدح، أي ليس فيه خير البتة إلا هذا، وهذا ليس بخير. (٢)

(١) التصوير الفني في الحديث النبوي ص ٢٦٢. د/محمد لطفي الصباغ، طبعة المكتب الإسلامي،بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٣هـ /١٩٨٣م

(٢) يراجع شرح الطيبي على مشكاة المصابيح ٣٤٠٣/١١ .

وعلى هذا يكون الحديث الشريف قد استخدم في بيان المعنى للأذهان أقرب الصور التي يمكن أن يدركها من حوله، فقد صور تسارع الفتن إلى القلب وتكرارها عليه بأعواد الحصير تكون شيئا مهينا لكن بعد تجميعها تصنع حصيرا متماسكا، محذرا من التهاون معها أو تشرب القلب لها، ثم صور حال القلوب معها بصورتين منتزعتين من واقع المخاطبين ومن بيئتهم، فالقلب الذي لا يقبل الفتن مثله كمثل الصفا الأملس الذي ليس به خلل لا يقبل علوق شيء به، وإن علق فمن السهل إزالته، وهكذا حال المؤمن ينفض عن قلبه آثار هذه الفتن من حين لآخر، ثم القلب الآخر الذي تشرَّب الفتن وامتلأ بها حتى صار مصدودا عن الهدى لا يعرف معروفا ولا ينكر منكرا، فهو كالكوز المنكوس المقلوب الذي لا يدخله الماء أبدا.

وبهذا يتضح دقة التلاؤم وحسن التناسب بين المعاني المقصود بيانها منه ـ صلى الله عليه وسلم ـ وبين الصورة المستخدمة في توضيح ذلك المعنى وتقريبه إلى الأذهان، وهذا من بلاغته صلى الله عليه وسلم وروعة بيانه.

٢ـ التحذير من الفتن التي كقطع الليل المظلم:

أيضا من الأحاديث التي تكلم فيها صلى الله عليه وسلم عن الفتن وحذر منها، ونبه إلى اغتنام الأوقات، وإعمارها بالطاعات قبل وقوع الفتن التي تصرف الناس عن العبادة، وتجعلهم في ذهول من أمرهم قوله:

عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- قَالَ « بَادِرُوا بِالأَعْمَالِ فِتَنًا كَقِطَعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ يُصْبِحُ الرَّجُلُ مُؤْمِنًا وَيُمْسِى كَافِرًا أَوْ يُمْسِى مُؤْمِنًا وَيُصْبِحُ كَافِرًا يَبِيعُ دِينَهُ بِعَرَضٍ مِنَ الدُّنْيَا. » [(١)]

(١) صحيح مسلم ١/٧٦.

هذا من أحاديث الفتن التي أخبرنا الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ عن نزول الفتن الشديدة العصيبة التي تذهل القلوب وتحير الألباب، ثم حثَّ على المبادرة بالأعمال الصالحة قبل أن ينشغل عنها، فهي فتن عظام متراكمة واحدة تلو الأخرى، لذلك شبهها ـ عليه الصلاة والسلام ـ بقطع الليل المظلم، فهي فتن بعضها على بعض، يصعب على من حدثت له أن يفرق بينها، وأن يرى الحق من خلالها، تجعل صاحبها أعمى لا يدري عن شيء، يتخبط في ظلام دامس لا يدري إلى أين يتجه، إنها فتن لا تدع للخير أرضاً ولا للأمان مسكناً، ولا شك أننا اليوم نعيش بعضاً من تلك الفتن، ولا مهرب منها إلاّ بالرجوع إلى الله تعالى، إنها فتن متتالية حالكة السواد، يحتاج تبديد ظلامها عملا صالحا كثيرا، وفي هذا دليل على أن الأعمال الصالحة كالمصابيح، تضيء لصاحبها الطريق، وتعينه على السير.

وحاصل معنى الحديث: تعجَّلوا بالأعمال الصَّالحة قبل مجيء الفتن المُظلمة مِنَ القتل والنَّهب والاختلاف بين المسلمين في أمر الدُّنيا والدِّين، فإنَّكم لا تُطيقون الأعمال على وجه الكمال فيها.

قال النووي: معنى الحديث الحث على المبادرة إلى الأعمال الصالحة قبل تعذرها، والاشتغال عنها بما يحدث من الفتن الشاغلة المتكاثرة المتراكمة كتراكم ظلام الليل المظلم لا المقمر، وقد وصف ـ صلى الله عليه و سلم ـ نوعا من شدائد تلك الفتن وهو أنه يمسي مؤمنا ثم يصبح كافرا أو عكسه ـ شك من الراوي ـ وهذا لعظم الفتن ينقلب الإنسان في اليوم الواحد هذا الانقلاب." [1]

(يُصْبِحُ الرَّجُلُ مُؤْمِنًا) أي: موصوفًا بأصل الإيمان أو بكماله. (ويُمْسِي كَافِرًا) أي: حقيقةً، أو كافرًا للنَّعمة أو مشابهًا للكفرة، أو عاملاً عمل الكافر.

(١) شرح النووي على صحيح مسلم ١٣٣/٢.

وقيلَ المعنى: يصبح محرِّمًا ما حرَّمه الله، ويُمسي مستحِلًّا إيَّاه وبالعكس.

(يَبِيعُ أَحَدُهُمْ دِينَهُ) أي: بتركه. (بِعَرَضٍ) بفتحتين، أيْ: بأخذ متاع دنيء وثمن رديء. قالَ الطِّيِّبي ـ رحمه اللهُ ـ : قوله (يبيع .. إلخ) المظهر فيه وجُوه:

أحدها: أن يكون بين طائفتيْن مِن المُسلمين قتال لمجرد العصبيَّة والغضب، فيستحلُّون الدَّم والمال.

وثانيها: أنْ يكون وُلاة المسلمين ظَلَمة، فيُريقون دماء المُسلمين ويأخذون أموالهم بغير حقٍّ، ويزنون ويشربون الخمر، فيعتقد بعض النَّاس أنَّهم على الحقّ ويُفتيهم بعض عُلماء السُّوء، على جواز ما يفعلون مِنَ المحرَّمات، من إراقة الدِّماء وأخذ الأموال ونحوها.

ثالثها: ما يجري بين النَّاس ممَّا يُخالف الشرع في المعاملات، والمبايعات، وغيرها فيستحلُّونها.(١)

وقال الصنعاني: يبيع أحدهم. (دينه بعرض من الدنيا) بفتح الراء أي متاع ونكره ووصفه بأنه: (قليل) للإعلام بأنه يتساهل الناس بأمر الدين ولا يقدرون شيئاً، قال الحسن : فوالله لقد رأيناهم صوراً ولا عقول، وأجساماً ولا أحلام، فراش نار، وذباب طمع، يغدون بدرهمين ويروحون بدرهمين، يبيع أحدهم دينه بثمن عنز.(٢)

(١) يراجع مرقاة المفاتيح ١٥/٣٤٤، وشرح مشكاة المصابيح ١١/٣٤٠٦

(٢) يراجع التَّنويرُ شَرْحُ الجَامِع الصَّغِيرِ لمحمد بن إسماعيل بن صلاح بن محمد الحسني الصنعاني ٤/٥٢٦ تحقيق: د. محمَّد إسحاق محمَّد إبراهيم ط: مكتبة دار السلام، الرياض.

والصورة التشبيهية التي معنا هي قوله:(فِتَنًا كَقِطَعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ) فقد شبه حال الفتن في بشاعتها وهولها وعدم معرفة سببها ولا طريق الخلاص منها بقطع وأجزاء الليل، المقيد بصفة المظلم ، ووجه الشبه الحيرة والاضطراب والتخبط وعدم الاهتداء إلى سبيل، فليس المقصود تشبيه سوادها بسواد الليل ، فسواد الفتن وظلمتها شيء معنوي، وإنما قصد ما ينتج عن هذا الظلام الدامس من تخبط وتيه وعدم اهتداء.

وهذه الصورة التمثيلية الرائعة تتيح للسامع تخيل عظم هذه الفتن ومقدار الخطر فيها، ومدى الحيرة والذهول الذي يصيب جميع الناس سفيههم وحليمهم مؤمنهم وفاجرهم، عن طريق تخيل الطرف الثاني من التشبيه من تشابك قطع الليل البهيم وتواصل بعضها ببعض لا أمل فيها بانقضاء، حيث إن المشبه به هنا (قطع الليل) الموصوف بـ (المظلم) الذي من أبرز صفاته وأصرحها وأشهرها التخبط وعدم الاهتداء، المأخوذ من الظلمة الشديدة المتراكمة ، وهو ما يتلاقى مع حال تلك الفتن التي حذّر منها الحديث هنا ، التي تجعل الناس في زمانها يتخبّطون، لا يدرون عواقب ما يفعلون، ومن ثم فهم يسيرون على غير هدى، ويتغيرون من النقيض إلى النقيض، فبينا الرجل من المؤمنين المهتدين الذين يعرفون طريقهم ، ويسيرون على هدي ربهم، يعرفون ما يحل لهم وما يحرم عليهم ، فكأنهم يسيرون في النور، إذا به . وبسرعة شديدة . ينتكس ، وتنقلب حاله فيفعل أفعال الكفرة ، ويقع في الموبقات ويرتكب الكبائر ، أو يكفر بالفعل ، لعدم الرؤية أو التدبر، تماما كمن يسير في ظلمة تتغير حاله، فبينما هو يسير سالما معتدلا إذا به ينكفئ لعدم إمكانية الرؤية أيضا، غير أن الرؤية هنا في الليل حسية، وفي الفتن معنوية، وهذا هو التخبط بعينه ، الذي يكشفه ويبينه أتم بيان وأوضحه تشبيهه بقطع الليل المظلم.

وربما كان السرُّ وراء اختيار الليل المظلم . مع أن الظلام الحقيقي غير مقصود في الصورة . الإحاطة والشمول التي يعم بها الليل كل أماكن الأرض، فالفتنة تغطي الجميع كما يغطي الليل جميع نواحي الحياة، وثمة شيء آخر وهو التتابع لهذا الظلام المأخوذ من قوله (كقِطَع) بصيغة الجمع وما تثيره من تتابع الظلمات مما يوحي بتتابع الفتن وتوالي المحن وبُعد مصدر الهداية الذي يحقق الخلاص منها .

ثم تراه يزيدك وضوحا لخطورة هذه الفتن بهذا الاستئناف البياني في قوله:(يُصْبِحُ الرَّجُلُ مُؤْمِنًا وَيُمْسِى كَافِرًا أَوْ يُمْسِى مُؤْمِنًا وَيُصْبِحُ كَافِرًا) وكأن السامع دهش من قوله: (فتنا كقطع الليل المظلم)، فبادر سائلا: فما آثار هذه الفتن؟ فجاء الجواب ليقرع الآذان بهذه الفاجعة(يُصْبِحُ الرَّجُلُ مُؤْمِنًا وَيُمْسِى كَافِرًا أَوْ يُمْسِى مُؤْمِنًا وَيُصْبِحُ كَافِرًا) يا لهول المصيبة! يتحول الرجل ما بين الصباح إلى المساء من الإيمان إلى الكفر من هول هذه الفتن التي تعصف بالألباب.

ما زالت الدهشة تتملك السامع وتحيط به من كل مكان،فكأنه يسأل: كيف ينقلب الإنسان في اليوم الواحد هذا الانقلاب فيمسي كافرا بعد أن كان في الصباح مؤمنا؟! فيأتي الجواب:

(يَبِيعُ دِينَهُ بِعَرَضٍ مِنَ الدُّنْيَا) أي: أن سبب كفره بيعه، وعَرَضُ الدنيا (بفتح العين والراء) هو طمعها وما يَعْرِضُ منها، ويدخُلُ فيه جميعُ المال، فهو تصوير رائع بطريق الاستعارة حيث شبه تخلى هذا المفتون عن دينه ليأخذ هذا العرض بالبيع الذي هو ترك السلعة والتخلي عنها كلية في مقابل الثمن، ثم حذف المشبه وصرح بالمشبه به على طريقة الاستعارة التصريحية التبعية.

وتلحظ أن الجملتين (يُصْبِحُ الرَّجُلُ مُؤْمِنًا وَيُمْسِى كَافِرًا أَوْ يُمْسِى مُؤْمِنًا وَيُصْبِحُ كَافِرًا) و(يَبِيعُ دِينَهُ بِعَرَضٍ مِنَ الدُّنْيَا) وردتا مفصولتين عن الجملة التشبيهية السابقة، والسر هو ما يسميه البلاغيون "شبه كمال الاتصال" أو الاستئناف البياني، فقد تضمنت كل منهما جوابا على سؤال اقتضته الجملة التشبيهية، فهما مكملتان لجوانب التصوير في الجملة التشبيهية؛ فقد بينتا سرَّ تشبيه الفتن بقطع الليل المظلم، وبهذا يتضح التلاؤم والتناسب بين طرفي التشبيه، ويبرز الوجه في اختيار قطع الليل المظلم لتكون الطرف الثاني من التشبيه على الرغم من عدم قصد الظلام الحسي الموجود في الليل، والذي ربما يتبادر إلى ذهن السامع في أول وهلة.

٣. الحديث عن فتن الشبهات:

أيضا تكلم النبي صلى الله عليه وسلم عن فتن الشبهات التي توقع من تلبس بها في الحرام، وشبه من يحوم حول هذه الشبهات بالراعي الذي يتساهل في زجر أغنامه حتى ترتع في حمى الملوك، فيعرض نفسه للمجازاة والعقاب، وذلك من خلال الحديث الذي رواه الإمام مسلم في صحيحه:

عَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ قَالَ سَمِعْتُهُ يَقُولُ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- يَقُولُ وَأَهْوَى النُّعْمَانُ بِإِصْبَعَيْهِ إِلَى أُذُنَيْهِ « إِنَّ الْحَلاَلَ بَيِّنٌ وَإِنَّ الْحَرَامَ بَيِّنٌ وَبَيْنَهُمَا مُشْتَبِهَاتٌ لاَ يَعْلَمُهُنَّ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ فَمَنِ اتَّقَى الشُّبُهَاتِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ وَقَعَ فِي الْحَرَامِ كالراعي يَرْعَى حَوْلَ الْحِمَى يُوشِكُ أَنْ يَرْتَعَ فِيهِ، أَلاَ وَإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمًى، أَلاَ وَإِنَّ حِمَى اللَّهِ مَحَارِمُهُ، أَلاَ وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ

مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلاَ وَهِىَ الْقَلْبُ ». (١)

"أجمع العلماء على عظم موقع هذا الحديث وأنه أحد الأحاديث التي عليها مدار الإسلام قال جماعة هو ثلث الإسلام وأن الإسلام يدور عليه وعلى حديث الأعمال بالنية وحديث من حسن إسلام المرء تركه مالا يعنيه وقال أبو داود السجستاني يدور على أربعة أحاديث هذه الثلاثة وحديث لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه، قالوا سبب عظم موقعه أنه صلى الله عليه وسلم نبه فيه على صلاح المطعم والمشرب والملبس والمنكح وغيرها، وأنه ينبغي أن يكون حلالا وأرشد إلى معرفة الحلال وأنه ينبغي ترك الشبهات، فإنه سبب لحماية دينه وعرضه وحذر من مواقعة الشبهات وأوضح ذلك بضرب المثل بالحمى، ثم بين أهم الأمور وهو مراعاة القلب. قوله:{بين} أي ظاهر نظرا إلى ما دل على الحل بلا شبهة وعلى الحرام بلا شبهة- {وبينهما مشبهات} - أي الوسائط التي يجتذبها دليلان من الطرفين بحيث يقع الاشتباه بغير ترجيح دليل أحد الطرفين إلا عند القليل من العلماء.قال النووي: معناه أن الأشياء ثلاثة أقسام حلال واضح لا يخفى حله كالخبز والفواكه والكلام والمشي وغير ذلك، وحرام بين كالخمر والميتة والدم والزنا والكذب وأشباه ذلك، وأما المشبهات فمعناه أنها ليست بواضحة الحل والحرمة ولهذا لا يعرفها كثير من الناس، وأما العلماء فيعرفون حكمها بنص أو قياس أو استصحاب وغيره، فإذا تردد الشيء بين الحل والحرمة ولم يكن نص ولا إجماع

(١) صحيح مسلم ٥/٥٠.

اجتهد فيه المجتهد فألحقه بأحدهما بالدليل الشرعي، فإذا ألحقه به صار حلالا أو حراما".(١)

والصورة التشبيهية هنا واقعة في قوله:"وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ وَقَعَ فِي الْحَرَامِ كالراعي يَرْعَى حَوْلَ الْحِمَى يُوشِكُ أَنْ يَرْتَعَ فِيهِ".

أما نوع التشبيه :

فهو باعتبار طرفيه تشبيه مركب بمركب – وهو الذي لا يمكن فصل أجزائه وهو ما طرفاه – المشبه، والمشبه به – كثرتان مجتمعتان، ولا يحصل الشبه من كل واحد من الأمور على انفراد؛ بل ينتزع وجه الشبه العقلي من عدة أمور يجمع بعضها إلى بعض، ثم يستخرج من مجموعها الشبه. (٢)

وهو من حيث الطرفين متعدد من نوع التشبيه الملفوف، حيث أتى فيه بالمشبهين، ثم المشبه بهما، حيث شبه المكلف بالراعي، والنفس بالأنعام، والمشتبهات بما حول الحمى، والمحارم بالحمى، وارتكاب المشتبهات بالرتع حول الحمى، فكان التشبيه ملفوفاً .

وهو من حيث وجه الشبه تشبيه تمثيلي: فهو وصف منتزع من عدة أمور، حيث وقع التشبيه بين حال من يدخل في الشبهات، وحال الراعي الذي يرعى حول

(١) الكواكب الدراري في شرح صحيح البخاري. لمحمد بن يوسف شمس الدين الكرماني ٢٠٣/١ ط/ دار إحياء التراث العربي، بيروت، طبعة ثانية: ١٤٠١هـ – ١٩٨١م

(٢) انظر: أسرار البلاغة للشيخ عبد القاهر الجرجاني ص ١٠٩ تحقيق محمود محمد شاكر ط: مطبعة المدني بالقاهرة، دار المدني بجدة والإيضاح في علوم البلاغة للخطيب القزويني (ص ٢٢١) دار إحياء العلوم ، بيروت. و البلاغة فنونها وأفنانها علم البيان والبديع:فضل حسن عباس (ص٥١) الطبعة: الأولى ،١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م ، دار الفرقان، عمان .

الحمى المحظور، من حيث خوف الوقوع فيه، ووجه الشبه فيه: حصول العقاب لكل منهما لعدم الاحتراز، فالأول أهمل ورعى حول الحمى، والثاني تعرض لمقدمات المحرم، فالشبه منتزع من عدة أمور. (١)

وهذه الصورة من التشبيه التمثيلي قد أعطت إيحاءاتٍ بمعانٍ متعددة منها:

حصول العقاب بعدم الاحتراز عن المشبهات، كما أن الراعي إذا جرّه رعيه حول الحمى إلى وقوعه في الحمى استحق العقاب بسبب ذلك، فكذلك من أكثر من الشبهات، وتعرض لمقدماتها وقع في الحرام، أو كاد، فاستحق العقاب بسبب ذلك فهو تَشبِيه بِالْمحسوس الَّذي لَا يخفى حاله، ووجه التَّشْبِيه حصول الْعقَاب بِعدم الاحْتراز .(٢)

ومنها: سرعة الرتع دون إبطاء، فكما أن الأنعام إذا رعت على حدود الحمى لم يستطع راعيها ضبطها، وحجزها عن الوقوع في الحمى، فكذا العبد إذا قارب حمى الحرام فستغلبه شهواته، فيسقط في الحرام سريعاً فقرب الحمى خطير ينذر بالوقوع فيه.

ومنها: خطورة مواقع الحرام؛ لأنها حمى الله واقتحامها خطير ليس بيسير، وهي أشد من حمى الملوك التي يتحاماها الناس خوفاً من عقوباتهم. (٣)

---

(١) من بلاغة السنة :محمد بيلو أحمد أبو بكر (ص٥٦)، الطبعة: بدون ، مطبعة أطلس .

(٢) انظر: عون المعبود شرح سنن أبي داود، ومعه حاشية ابن القيم: تهذيب سنن أبي داود وإيضاح علله ومشكلاته لمحمد أشرف بن أمير بن علي بن حيدر، أبو عبد الرحمن، شرف الحق، الصديقي، العظيم آبادي (١٢٧/٩) ط: دار الكتب العلمية – بيروت الطبعة: الثانية، ١٤١٥ هـ.

(٣) انظر: من روائع الأدب (ص٢١٠، ٢١١) من روائع الأدب النبوي :كامل سلامة الدقس، الطبعة: الثانية ، دار الشروق.

ومنها: أن المحارم ممنوعة التبسط فيها، والتخطي لحدودها، واجبة التجنب، وأنه كما يحتاط الراعي ويتحرز من مقاربة الحمى حذراً عن أن تتخطاه ماشيته، فيتعرض لسخط السلطان، ويستوجب تأديبه، فإنه ينبغي أن يتورع المكلف عن الشبهات، ويتجنب مقاربتها كي لا يقع في المحارم، ويستحق السخط العظيم والعقاب الأليم [1] الذي يستحقه من سيَّب ماشيته، فرتعت في حمى السلطان، فيصيبه من بطشه ما لا قبل له به.

ومنها: أن الخائف من العقوبة، المراقب لرضا الملك يبعد عن الحمى الذي حماه، خشية وقوع مواشيه في شيء منه، فبعده أسلم له من الوقوع ، لأنه يلزم من القرب غلبة الوقوع ولو اشتد حذره، فيعاقب، فإن من أراد نجاة نفسه من العقوبة لم يقرب الحمى، ولم يدخل حريمه خوفاً من الوقوع فيه .[2]

وغير الخائف المراقب يقرب منه، ويرعى من جوانبه، فلا يأمن أن تنفرد الفاذَّة، فتقع فيه بغير اختياره، أو يمحل المكان الذي هو فيه، ويقع الخصب في الحمى، فلا يملك نفسه أن يقع فيه، أو يغفل عن ماشيته، أو يتساهل فترعى مكان حمى الملك .

ومن حام حول حمى الحرام، ودخل في الشبهات، وتعرض للمقدمات فإنه يقرب ويسرع أن يقع في الحرام [3]، فيتعرض لسخط الملك العلام، فالله سبحانه هو

---

(١) انظر: شرح الطيبي (١١/٦)، شرح النووي على مسلم (٢٠٨/١٠) الحديث الشريف وأحكامه : أبو اليقظان عطية الجبوري ، الطبعة: بدون ، دار الأنصار ، البستان (ص٢٧) .

(٢) انظر فضل المنان بشرح حديث النعمان عليه من الله الرضوان: {الحلال بيّن ، والحرام بيّن}إعداد:حصة بنت عيد العزيز الصغير بحث منشور في حولية كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين بالقاهرة بجامعة الأزهر العدد٢٣عام١٤٢٦-٢٠٠٥م ص ٧٤.

(٣) انظر فتح العلام لشرح بلوغ المرام :أبي الخير نور الحسن خان بن أبي الطيب صديق بن

الملك حقاً، وحماه محارمه، ثم إن الغالب أن ما يقع فيه العبد من الشبهات لا يخلو عن المحارم، كما أن الراعي حول الحمى يوشك أن يقع في الحمى(١).

ومنها: أن حمى الله تعالى، وهي محارمه تميل إليها النفس، وكذلك حمى الملك، فهو مكان معشب نضر، لأنه إذا حمي ولم يُنتهك بالرعي ازدهر، وكثر عشبه، فترغب الماشية أن ترعى فيه لجودته وخضرته، ولقربه منها، فإما أن يغفل الراعي، أو تتمرد عليه، ويعجز عنها فتدخل، ولذا فهي تحتاج إلى ملاحظة ومراقبة، ومع ذلك فالأولى البعد بماشيته عن هذا الحمى(٢) .

وقد اتسم هذا التشبيه بأنه أبلغ تشبيه وأحسنه، وأدله على التحذير في هذا المعنى، حيث شبه المعقول بالمحسوس الذي لا يخفى حاله، ثم جعل التشبيه مركباً فكان فيه جمال الصورة والتأثير في النفس(٣) كما أنه قرب المعنى إلى الأذهان بصورة يعرفها العرب جميعًا، فهي مأخوذة من واقع حياتهم، فمعظم العرب يعيشون حياة الرعي وتتبع مواطن الكلأ والعشب، وتقع من أغنامهم وإبلهم مجاوزة للمرعى، فتند الشاة وغيرها إلى حمى الآخرين، وربما قامت الحروب بينهم بسبب اعتداء الماشية على حمى الغير.

حسن بن علي الحسيني البخاري القنوجي، تخريج: محمد لقمان السليفي، عبد المنان عبد اللطيف المدني، الطبعة: الأولى ١٤٢١هـ ، دار الداعي، الرياض (ص٩٤٥).

(١) انظر: شرح الطيبي الكاشف عن حقائق السنن :الطيبي حسين بن محمد بن عبد الله،(١٠/٦) تحقيق: المفتي عبد الغفار وآخرون، الطبعة: الأولى، ١٤١٣ هـ/ ١٩٩٣ م، إدارة القرآن والعلوم الإسلامية، كراتشي – باكستان.

(٢) انظر: شرح الأربعين النووية :محمد بن صالح العثيمين ، (ج١٧٧/٦) الطبعة: الأولى ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م ، دار الثريا، الرياض .

(٣) انظر: البلاغة فنونها وأفنانها (ص٥٣) .

لذا كانت لهذه الصورة التشبيهية وقع وأثر كبير في بيان معنى اتقاء الشبهات والتحرز عن مقاربتها، فالنفس البشرية تميل بطبعها إلى إشباع رغباتها حتى ولو كان بالمحظور، يساعدها على ذلك الشيطان بالتزيين والإغراء خطوة بعد خطوة حتى يوقعها في الحرام، فكان لصورة الرعي حول الحمى أبلغ التلاؤم والتناسب في تقديم الصورة التي تجسد هذه الحالة للنفس البشرية، ومقاربتها من الشبهات التي توقعها في الحرام، وهذا عن طريق عدة أمور:

أولها: أن مجيء التشبيه لم يكن للتحذير من الحرام ، بل من مقدماته (الشبهات) ، وهذا ما وضحته صورة المشبه الذي حذر من الوقوع في الشبهات وعدم التورع عنها ، ومن ثم تهون في نظره ، ويألفها ، ولا يتحرج، وهذا يجرّه قطعا إلى المحرمات؛ لأنه تخطى مرحلة الشبهات. إذن هو يريد أن يحذر بشدة من المحرمات عن طريق التحذير من مقدماتها ، ويوضح أن من وقع في الشبهات (مقدمات المحرمات) مهما كان حريصا متحرزا عن الوقوع في المحرمات ، فضلا عن أن يكون مستعدا أو مهيئا لذلك، فإن وقوعه في الحرمات أقرب إليه مما يظن وأسرع .

ثانيها :أن صورة الحائم حول الشبهات دون تورع منه تتلاقى وتتناسب وتتلاءم ، بل تكاد تتطابق تماما مع صورة المشبه به ، التي هي الراعي الذي يرعى قريبا مما نهي عن أكله أو رعيه، فإنه مهما كان حريصا على تجنُّبه ، فضلا عن أن يكون غير ذلك، فإن الوقوع فيه ربما يحدث في أقرب لحظة وأسرع وقت ، ولا يستطيع دفعه ولا مقاومته .

ثالثها: ساعد في إبراز هذا التناسب والتلاؤم هو اصطفاء بعض الألفاظ التى تحقق هذا الغرض من مثل (حول) في (يرعى حول الحمى) وما تصوره من الإحاطة

به من كل جانب مما يظهر قرب وقوعه ويرشحه بشدة ، واستحالة إمكانية دفعه ، ومن ثم جاء بعدها بـ (يوشك) وهذا ما يبين بقوة ، ويفسر سبب التحذير من هذه الشبهات .

المبحث الثاني

دقة التلاؤم في سياق الحديث عن فتن أخر الزمان وعلامات الساعة

١- رفع الأمانة من صدور الرجال:

حَدَّثَنَا أَبُو بَكْرِ بْنُ أَبِى شَيْبَةَ حَدَّثَنَا أَبُو مُعَاوِيَةَ وَوَكِيعٌ ح وَحَدَّثَنَا أَبُو كُرَيْبٍ حَدَّثَنَا أَبُو مُعَاوِيَةَ عَنِ الأَعْمَشِ عَنْ زَيْدِ بْنِ وَهْبٍ عَنْ حُذَيْفَةَ قَالَ حَدَّثَنَا رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- حَدِيثَيْنِ قَدْ رَأَيْتُ أَحَدَهُمَا وَأَنَا أَنْتَظِرُ الآخَرَ حَدَّثَنَا « أَنَّ الأَمَانَةَ نَزَلَتْ فِى جِذْرِ قُلُوبِ الرِّجَالِ ثُمَّ نَزَلَ الْقُرْآنُ فَعَلِمُوا مِنَ الْقُرْآنِ وَعَلِمُوا مِنَ السُّنَّةِ ». ثُمَّ حَدَّثَنَا عَنْ رَفْعِ الأَمَانَةِ قَالَ « يَنَامُ الرَّجُلُ النَّوْمَةَ فَتُقْبَضُ الأَمَانَةُ مِنْ قَلْبِهِ فَيَظَلُّ أَثَرُهَا مِثْلَ الْوَكْتِ ثُمَّ يَنَامُ النَّوْمَةَ فَتُقْبَضُ الأَمَانَةُ مِنْ قَلْبِهِ فَيَظَلُّ أَثَرُهَا مِثْلَ الْمَجْلِ كَجَمْرٍ دَحْرَجْتَهُ عَلَى رِجْلِكَ فَنَفِطَ فَتَرَاهُ مُنْتَبِرًا وَلَيْسَ فِيهِ شَىْءٌ - ثُمَّ أَخَذَ حَصًى فَدَحْرَجَهُ عَلَى رِجْلِهِ - فَيُصْبِحُ النَّاسُ يَتَبَايَعُونَ لاَ يَكَادُ أَحَدٌ يُؤَدِّى الأَمَانَةَ حَتَّى يُقَالَ إِنَّ فِى بَنِى فُلاَنٍ رَجُلاً أَمِينًا. حَتَّى يُقَالَ لِلرَّجُلِ مَا أَجْلَدَهُ مَا أَظْرَفَهُ مَا أَعْقَلَهُ وَمَا فِى قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ إِيمَانٍ ». (١)

الحديث هنا يصف علامة من علامات الساعة واقترابها، حيث تنزع الأمانة من قلوب الناس ، فلا تكاد تجد فيهم إنسانا أمينا، فقد قبضت الأمانة من قلوبهم بسبب عصيانهم وخلو قلوبهم من الإيمان،حتى إن أحدهم لينام النومة فتنزع الأمانة من قلبه فما يبقى منها إلا مثل (الوكت) ، وهو الأثر من سواد أو غيره يكون في اليد، ثم ينام مرة أخرى فتقبض الأمانة فما يبقى إلا مثل أثر العمل في اليد وهو

(١) صحيح مسلم ٨٨/١ باب رفع الأمانة.

انتفاخ الجلد . وهو ما عبر الحديث عنه بـ (المجل) . [١] حتى إن الناس ليتبايعون وليس فيهم أمين إلا ما يذكرونه على سبيل الاستغراب والتعجب فيقولون إن في بني فلا رجل أمين.

يقول النووي :" معنى الحديث أن الأمانة تزول عن القلوب شيئا فشيئا فإذا زال أول جزء منها زل نورها وخلفته ظلمة كالوكت وهو اعتراض لون مخالف للون الذي قبله فإذا زال شيء آخر صار كالمجل وهو أثر محكم لا يكاد يزول إلا بعد مدة وهذه الظلمة فوق التي قبلها ثم شبه زوال ذلك النور بعد وقوعه في القلب وخروجه بعد استقراره فيه واعتقاب الظلمة إياه بجمر يدحرجه على رجله حتى يؤثر فيها ثم يزول الجمر ويبقى التنفط وأخذه الحصاة ودحرجته إياها أراد بها زيادة البيان وإيضاح المذكور" [٢]

والحديث هنا يشتمل على صورتين تشبيهيتن:

الأولى: قوله" فَتُقْبَضُ الأَمَانَةُ مِنْ قَلْبِهِ فَيَظَلُّ أَثَرُهَا مِثْلَ الْوَكْتِ" تصور رفع الأمانة من القلوب مع بقاء الأثر اليسير الذي يدل على آخر بقايا الإيمان في القلب،الذي سيزول شيئا فشيئا، مثل ما يبقى في جسد الإنسان من أثر الجرح أو الحرق ثم يتلاشى مع مرور الأيام،

(١) الفرق بين الوكت والمْجل : أن الوَكْت : النُّقَطَ في الشيء من غير لَوْنه يقال : بعَيْنه وَكْته ووكت البُسْرُ : إذا بدت فيه نقطُ الإرْطاب . والمْجل : غلظُ الجْلد من العمل لاغير ويدلُّ عليه قوله : تراه مُنْتبراً : أي متنفخاً وليس فيه شيء. "الفائق في غريب الحديث لمحمود بن عمر الزمخشري ١/٢٠٠ ط : دار المعرفة – لبنان الطبعة الثانية تحقيق : علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم.

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم ١٨٨/٢.

هكذا قبض الأمانة لا يبقى لها أثر في حياته ولا يتعامل بها، لأنها نزعت من قلبه فلا يعرف منها إلا اسمها، لكن قلبه لا يشعر بها،بل ربما يتذكر أنه كان يؤدي الأمانة في يوم من الأيام كما يتذكر الجرح القديم إذا نظر إلى أثر الوكت.

فالصورة تعبر تعبير دقيقا عن زوال الأمانة وفقدان الإحساس بها، وتتناسب مع المعنى تناسبا تاما،حيث الاشتراك التام في وجه الشبه وهو زوال الشيء وبقاء أثره.

فقبض الأمانة من القلوب يمر بمراحل ، الأولى : قبضها من القلوب وبقاء أثرها من دون تشويهها ، وهي ما جاءت هذه الصورة(فَيَظَلُّ أَثَرُهَا مِثْلَ الْوَكْتِ) . قبض مضمونها وفحواها من القلوب وبقاء علامة ظاهرية وأثر مادي لها فقط ، على أنها ما زالت لها مكانتها عند الناس ، وهو ما بينه الحديث بعد في (حَتَّى يُقَالَ إِنَّ فِى بَنِى فُلاَنٍ رَجُلاً أَمِينًا. حَتَّى يُقَالَ لِلرَّجُلِ مَا أَجْلَدَهُ مَا أَظْرَفَهُ مَا أَعْقَلَهُ وَمَا فِى قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ إِيمَانٍ) فهو يريد أن يقول : إن هذه المرحلة تقبض فيها الأمانة من القلوب ، ولا يبقى منها إلا علامة . فحسب . تشير إليها غير أنها تظل لها مكانتها عند الناس ، حتى يشيرون إلى فلان من بني فلان الأمين الذي هو في الحقيقة ليس فيه من الأمانة إلا علامة وأثر مادي ، هذا غرض الصورة الأولى الرئيس ، وهذا ما يتلاقى معه اصطفاء (الوكت)،الذي يدل على علامة ظاهرية خاوية من فحواها غير أنها لا يمكن ذمها. فقد تفرغ القلب من الإيمان الذي هو سبب بقاء الأمانة فيه ، وصورة الوكت ترسم هذا المعنى وتؤكد على ترسيخه في ذهن السامع.

والصورة الثانية:قوله" فَتُقْبَضُ الأَمَانَةُ مِنْ قَلْبِهِ فَيَظَلُّ أَثَرُهَا مِثْلَ الْمَجْلِ كَجَمْرٍ دَحْرَجْتَهُ عَلَى رِجْلِكَ فَنَفِطَ فَتَرَاهُ مُنْتَبِرًا وَلَيْسَ فِيهِ شيء"

وهذه أخطر من الأولى ، لأن الصورة الأولى وضحت زوال الأمانة مع بقاء أثر لها في القلب، لكن الصورة الثانية وضحت مرحلة قبض الأمانة وتشويه أثرها الذي تَبَقَّى منها، ومن ثم اختار لها هنا (المجل) الذي هو ألم ناشئ عن مشقة العمل وعلامة عليه فارعة من المضمون، ثم ترقّى في تشويه هذا الأثر وتقبيحه . في نظر أهل هذا الزمان . بصورة ثانية تزيده وضوحًا ، وتخلع عليه قبحًا . إذ إن أثر العمل محمود وإن آلم . عن طريق تشبيهه بالانتبار والانتفاط يحدث في رجل الإنسان لا بسبب شجاعته وإقدامه ، أو إنقاذه أحدا أو شيئا ، أو عمله لمعاشه ، أو غيرها ،إنما بسبب جمر دحرجه هو على رجل، إنه منظر عبثي في غاية السوء ، لا تعقُّل فيه ، ولا نفع من ورائه، ثم انظر إلى اصطفاء الكلمات وما توحي به :

الجمر رمز به للأمانة مما ينبئ عن كرهها ونفور الناس منها.

الانتبار والانتفاط الناشئ عن حرق جزء من جسد الإنسان، وهذا هو أثر الأمانة في النفس في ذلك الزمان مما يكشف ما يعانيه الأمناء ثَمَّةَ ....

التعبير بـ (الرّجْل) وأن أثر الأمانة بدل أن كان في القلب أشرف أعضاء الإنسان وسيدها أصبح في ذلك الزمان يظهر على الأرجل .

ثم (فنفط فتراه منتبرا وليس فيه شيء) الذي يدل على أن صورته صورة هيئة عظيمة وانتفاخ ظاهر، وحقيقته أنه خاو لا شيء فيه ، ولا قوة له، منظر مغر ومخبر سيء:(كَجَمْرٍ دَحْرَجْتَهُ عَلَى رِجْلِكَ فَنَفِطَ فَتَرَاهُ مُنْتَبِرًا وَلَيْسَ فِيهِ شيء) ليؤكد على صورة ادعاء الأمانة أمام الناس وهو في الحقيقة خائن يرائي الناس بإظهار ما ليس عنده، كمثل ما يكون من أثر الجمر في الجلد حين ينتفخ وليس تحته شيء، وإن وجد تحته شيء من ماء أو غيره فهو فاسد ضار لا قيمة له، فالصورة توضح قبح المنظر حيث يبدو ناتئا زائدا عن الجسد، وهذه الزيادة لا تلوي على شيء

مفيد، بل فيها ما فيها من الضرر للجسد كله، وهذا المدعي للأمانة الذي ليس في قلبه شيء منها ثم تظاهره بها قبيح وغير متلائم مع طبيعة المجتمع الذي خلا من الأمانة كله.

ثم انظر إلى تأكيد آخر من النبي صلى الله عليه وسلم لصورة دحرجة الجمر على القدم وتركها للأثر، يوضحها حكاية راوي الحديث للمنظر حين قال" ثُمَّ أَخَذَ حَصًى فَدَحْرَجَهُ عَلَى رِجْلِهِ" وهي تؤكد سرعة زوال الأمانة من القلوب في هذا الزمان، فهي تزول في سرعة خاطفة ولا يبقى من أثرها إلا ما تشمئز منه النفوس.

وتأكيد المعنى بالتمثيل الفعلي لها صورة من صور البلاغة في ترسيخ المعنى في الذهن، نجد إشارة إلى ذلك عند الإمام عبد القاهر حين قال:" فأنت إذن مع الشاعر وغير الشاعر إذا وقع المعنى في نفسك غيرَ ممثَّلٍ ثم مَثَّلَه كمن يُخبر عن شيء من وراء حجاب، ثم يكشف عنه الحجاب ويقول: ها هو ذا، فأبصِر تجده على ما وصفتُ".(١)

ولعل هذه التأكيدات توحي بالسر في اختيار هذه الصورة لتكون الطرف الثاني في جملة التشبيه، وهو أن الأمانة والإحساس بوجودها داخل النفس أمر ذاتي، لا ينخدع به صاحبه وإن انخدع به غيره، لذا جاء الحديث بصورتين لا يخلو إنسان من التعرض لهما، وهما "الوكت" و"المجل" ليوحي بأمور، منها:

الأول: انتفاء الأمانة من القلب كلية، وإن بقي شيء منها فهو أثر واهٍ لا قيمة له ولا نفع، وهو ما يصوره التشبيه بـ (الوكت).

(١) أسرار البلاغة للشيخ عبد القاهر الجرجاني. ص ١٢٢ قرأه وعلق عليه: محمود محمد شاكر ط/ مطبعة المدني بالقاهرة، دار المدني بجدة

الثاني: زوال الإحساس بهذه الأمانة من قلب العبد حتى ولو كان مازال يذكر اسمها، كزوال الألم الذي نتج عن الجرح، حتى وإن كان أثره باقيا شاهدا عليه.

الثالث: سرعة الزوال وتقبيح الأمانة وتشويهها، وبقاء الخداع بالصورة الظاهرة التي تحمل الخبث ويحسبها الجهَّال شيئا مفيدا، وهذا ما يصوره التشبيه بـ (المجل) الناتج عن دحرجة الجمر على القدم.

الرابع: التصوير بـ (الوكت) و(المجل) يدل على تحول الأمانة من شيء يدرك بالإحساس والشعور، ويترجم في التعامل مع الآخرين فيتحول إلى واقع ملموس، تحول ذلك كله إلى شكل ظاهري ربما يدرك بالكلام، لكن لا أثر له في التعامل، كالذي تراه من أثر الحرق، أو انتفاخ الجلد عن الجسد لكن دون نفع يرجى، فقد نزعت الأمانة عن مكانها الأصلي نزعا تاما انفصلت عنه، ، وغدا ما بقي منها أطلالا وآثارا لا تغني شيئا، ولا يستفاد منها بأية فائدة.

٢ـ في الحديث عن صفة المسيح الدجال:

عَنِ النَّوَّاسِ بْنِ سَمْعَانَ قَالَ ذَكَرَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- الدَّجَّالَ ذَاتَ غَدَاةٍ فَخَفَّضَ فِيهِ وَرَفَّعَ حَتَّى ظَنَنَّاهُ فِى طَائِفَةِ النَّخْلِ فَلَمَّا رُحْنَا إِلَيْهِ عَرَفَ ذَلِكَ فِينَا فَقَالَ « مَا شَأْنُكُمْ ». قُلْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ ذَكَرْتَ الدَّجَّالَ غَدَاةً فَخَفَّضْتَ فِيهِ وَرَفَّعْتَ حَتَّى ظَنَنَّاهُ فِى طَائِفَةِ النَّخْلِ. فَقَالَ « غَيْرُ الدَّجَّالِ أَخْوَفُنِى عَلَيْكُمْ إِنْ يَخْرُجْ وَأَنَا فِيكُمْ فَأَنَا حَجِيجُهُ دُونَكُمْ وَإِنْ يَخْرُجْ وَلَسْتُ فِيكُمْ فَامْرُؤٌ حَجِيجُ نَفْسِهِ وَاللَّهُ خَلِيفَتِى عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ إِنَّهُ شَابٌّ قَطَطٌ عَيْنُهُ طَافِئَةٌ كَأَنِّى أُشَبِّهُهُ بِعَبْدِ الْعُزَّى بْنِ قَطَنٍ فَمَنْ أَدْرَكَهُ مِنْكُمْ فَلْيَقْرَأْ عَلَيْهِ فَوَاتِحَ سُورَةِ الْكَهْفِ إِنَّهُ خَارِجٌ خَلَّةً بَيْنَ الشَّأْمِ وَالْعِرَاقِ فَعَاثَ يَمِينًا وَعَاثَ شِمَالاً يَا عِبَادَ اللَّهِ فَاثْبُتُوا ». قُلْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا لَبْثُهُ فِي الأَرْضِ قَالَ « أَرْبَعُونَ يَوْمًا يَوْمٌ كَسَنَةٍ وَيَوْمٌ كَشَهْرٍ وَيَوْمٌ كَجُمُعَةٍ وَسَائِرُ أَيَّامِهِ كَأَيَّامِكُمْ ». قُلْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ

فَذَلِكَ الْيَوْمُ الَّذِى كَسَنَةٍ أَتَكْفِينَا فِيهِ صَلاَةُ يَوْمٍ قَالَ « لاَ اقْدُرُوا لَهُ قَدْرَهُ ». قُلْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا إِسْرَاعُهُ فِى الأَرْضِ قَالَ « كَالْغَيْثِ اسْتَدْبَرَتْهُ الرِّيحُ فَيَأْتِى عَلَى الْقَوْمِ فَيَدْعُوهُمْ فَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَجِيبُونَ لَهُ فَيَأْمُرُ السَّمَاءَ فَتُمْطِرُ وَالأَرْضَ فَتُنْبِتُ فَتَرُوحُ عَلَيْهِمْ سَارِحَتُهُمْ أَطْوَلَ مَا كَانَتْ ذُرًا وَأَسْبَغَهُ ضُرُوعًا وَأَمَدَّهُ خَوَاصِرَ ثُمَّ يَأْتِى الْقَوْمَ فَيَدْعُوهُمْ فَيَرُدُّونَ عَلَيْهِ قَوْلَهُ فَيَنْصَرِفُ عَنْهُمْ فَيُصْبِحُونَ مُمْحِلِينَ لَيْسَ بِأَيْدِيهِمْ شَىْءٌ مِنْ أَمْوَالِهِمْ وَيَمُرُّ بِالْخَرِبَةِ فَيَقُولُ لَهَا أَخْرِجِى كُنُوزَكِ. فَتَتْبَعُهُ كُنُوزُهَا كَيَعَاسِيبِ النَّحْلِ ثُمَّ يَدْعُو رَجُلاً مُمْتَلِئًا شَبَابًا فَيَضْرِبُهُ بِالسَّيْفِ فَيَقْطَعُهُ جَزْلَتَيْنِ رَمْيَةَ الْغَرَضِ ثُمَّ يَدْعُوهُ فَيُقْبِلُ وَيَتَهَلَّلُ وَجْهُهُ يَضْحَكُ.... ». (١)

الحديث يصور صفة المسيح الدجال وكيفية تعامله مع الناس وخداعهم، ومدى فتنته لهم، والحديث قد اشتمل على عدة صور تشبيهية، نقف على صورتين منها:

الأولى قوله: "قُلْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا إِسْرَاعُهُ فِي الأَرْضِ قَالَ: كَالْغَيْثِ اسْتَدْبَرَتْهُ الرِّيحُ" والغيث هنا مقصود منه الغيم فهو من باب المجاز المرسل حيث أطلق السبب وأراد المسبب، فالصورة هنا غريبة توحي بغرابة المشبه، حيث شبهه في سرعته بسرعة الغيث الذي تسوقه الريح، وهذه الصورة لا تكاد تجدها في تشبيه السرعة في دنيا البشر، ولذا قال بعض العلماء عن هذه الصورة" والمعنى أن هذا مثال لا يدرك كيفيته ولا يمكن تقدير كميته". (٢)

ولعل هذه الغرابة تبين سر التلاؤم بين الطرفين، فإن المشبه هنا هو سرعة الإغواء والفتن وكثرته وعمومه، حيث يأتي عَلَى الْقَوْمِ فَيَدْعُوهُمْ فَيُؤْمِنُونَ بِهِ

(١) صحيح مسلم ١٩٧/٨ بابا الدجال وصفته.

(٢) مرقاة المفاتيح ٤٩٤/١٥ .

وَيَسْتَجِيبُونَ، ونعلم أن هذا إغواء في الدين يحتاج في الأصل إلى مزيد وقت وأناة ؛لأنه يتعلق بالفكر، ومن ثم ناسبه اصطفاء الغيوم استدبرتها الريح، ولم يختر له مشبها به مما هو مشهور في السرعة كالطير ، أو لمح البرق ، أو طرفة العين ؛ لأنه مهما كانت سرعة الفتن ، فإن ما يناسبها شيء فيه ثقل وأناة ، وهذا ما دل عليه وكشفه أتم كشف وأبينه اصطفاء هيئة الغيوم تسيرها الرياح.

فالصورة هنا تبرز أن فتنته تعم رقعة كبيرة من الأرض، كما أن حركته في الأرض لا تقف عند جهة محددة، بل يعيث يمينا وشمالا، كالغيم الذي تحركه الريح مرة من اليمين إلى الشمال ومرة من الشمال إلى اليمين، فالتشبيه لا يحدد سرعته بقدر ما يحدد تعدد الجهات التي يقصدها، وعموم هذه الجهات بالفتنة والخراب، كما تعم الغيوم جهات متعددة في وقت واحد، وأن فتنته تصيب الناس جميعا، فيؤمن به ويتبعه خلق كثير، لا ينجو من إلا من اعتصم بالله كما يصيب الغيث كل شيء وقع عليه إلا من استظل منه، كما تبين هذه الصورة سرعة وقوع الناس في الظلام والحيرة وعموم هذا الأمر حتى يشمل معظم بقاع الأرض كما يحدث من الغيم الكثيف حين يحجب عن الناس نور الشمس، فترى الناس يقرون هذا الواقع وينسون الحق الذي كانوا عليه، ولذا جاءت الجملة التالية للصورة التشبيهية تبين أنه يدعو ناسا فيؤمنون به" فيأتي عَلَى الْقَوْمِ فَيَدْعُوهُمْ فَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَجِيبُونَ" وذلك لما يرون من وقوع الخوارق على يده ،تصور سرعة افتنان الناس وعدم ثباتهم على الحق هذه الفاءات التي توحي بالسرعة والتتابع (فيأتي . فَيَدْعُوهُمْ . فَيُؤْمِنُونَ).

أما الصورة الثانية فهي قوله:" وَيَمُرُّ بِالْخَرِبَةِ فَيَقُولُ لَهَا أخرجي كُنُوزَكِ. فَتَتْبَعُهُ كُنُوزُهَا كَيَعَاسِيبِ النَّحْلِ" وهي صورة تبين واحدة من الخوارق التي تظهر على يديه فيفتتن الناس به، وهي أنه يمر بالأرض المهجورة الخربة التي لا يرجى

منها نفع، فيخاطبها مخاطبة العاقل، ويأمرها أن تخرج ما تحتها من كنوز وآثار، فتستجيب لأمره، فتخرج الكنوز وتتبعه وتسير خلفه كما تسير جماعات النحل خلف اليعسوب وهو أميرها أو قائدها.

واليعسوب ـ كما في كتب اللغة ـ هو أمير النحل وسيدها تتبعه جماعات النحل كلما طار[1]، لكنه عبر باليعسوب عن الجماعة؛ لأنه أميرها متى طار تبعته جماعته، وقد استخدم لفظ اليعاسيب هنا بصورة الجمع دلالة على كثرة الكنوز وسرعة انقيادها له.

والصورة التشبيهية هنا توحي بتعدد هذه الكنوز واستسلامها لأمرها وانتظامها في السير خلفه، كما تسير جماعات النحل خلف قائدها، كما أنها تبين الافتتان الشديد الذي يصيب جماعات وخلقا كثيرا، حيث يتبعه خلق كثير بلا وعي ولا تفكير عندما يرون ما يشبه المعجزات من تتابع خروج الكنوز وانقيادها، كما يحدث من مجموعات النحل في سيرها خلف قائدها.

فالتلاؤم فيها ـ فيما أرى ـ في مجرد التبعية التي تتلاقى وتتعاضد مع مقصد الصورة وغرضها الذي هو التعجيب من قدرته على الفتن ، فضلا عن امتلاك أدواته التي يغري بها من يفتنهم ، التي من أعجبها تبعية كنوز الأرض له في دقة وانتظام و و....مما يتلاءم مع شدة التحذير من فتنته التي ووردت في مفتتح الحديث ، ويبرر الفزع والقلق والخوف منها.

٣ـ في وصف ردم يأجوج ومأجوج:

(١) انظر لسان العرب ٥٩٨/١ ماد (عسب)، ومقاييس اللغة لابن فارس ٣١٨/٤ مادة (عسب) مطبعة :دار الفكر١٣٩٩هـ – ١٩٧٩م

لقد بين ـ عليه الصلاة والسلام ـ ما فتح من ردم يأجوج ومأجوج متخذاً التشبيه أداة لبيان مقدار تلك الفتحة في ذلك الردم .

عَنْ عُرْوَةَ عَنْ زَيْنَبَ بِنْتِ أُمِّ سَلَمَةَ عَنْ أُمِّ حَبِيبَةَ عَنْ زَيْنَبَ بِنْتِ جَحْشٍ أَنَّ النبي –صلى الله عليه وسلم– اسْتَيْقَظَ مِنْ نَوْمِهِ وَهُوَ يَقُولُ « لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَيْلٌ لِلْعَرَبِ مِنْ شَرٍّ قَدِ اقْتَرَبَ فُتِحَ الْيَوْمَ مِنْ رَدْمِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مِثْلُ هَذِهِ ». وَعَقَدَ سُفْيَانُ بِيَدِهِ عَشَرَةً. قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنَهْلِكُ وَفِينَا الصَّالِحُونَ قَالَ « نَعَمْ إِذَا كَثُرَ الْخَبَثُ ».

وفي رواية أَبِى هُرَيْرَةَ عَنِ النبي –صلى الله عليه وسلم– قَالَ « فُتِحَ الْيَوْمَ مِنْ رَدْمِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مِثْلُ هَذِهِ ». وَعَقَدَ وُهَيْبٌ بِيَدِهِ تِسْعِينَ.(١)

هذا الحديث بدأ به الإمام مسلم باب الفتن، وقال عنه: تضمن هذا الإسناد أربع صحابيات زوجتان لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وربيبتان له بعضهن عن بعض، ولا يعلم حديث اجتمع فيه أربع صحابيات بعضهن عن بعضٍ غيره.(٢)

والصورة التشبيهية في هذا الحديث قائمة على الإشارة بيده لرسم المعنى في ذهن المخاطب وتوضيح حجم ما فتح من ردم يأجوج ومأجوج . وهي تحليقه بالإبهام والسبابة .، فكم من إشارة أغنت في فهم المعنى عن كثير من العبارات.

وقد اختلف الرواة في تفسير هذه الإشارة، ففي الرواية الأولى عقد سفيان بيده عشرة، وفي الرواية الثَّانية عقد وهيب تسعين.

(١) صحيح مسلم ١٦٦/٨

(٢) انظر إكمال المعلم ٢٠٦/٨

قال بدر الدين العيني " وَأما عقده فَهُوَ تحليق الْإِبْهَام والمسَبِّحة بِوَضْع خَاص يعرفهُ أهل الحساب".[١]

وقال القاضي:"لعل حديث أبي هريرة متقدم فزاد قدر الفتحة بعد هذا القدر قال: أو يكون المراد التقريب بالتمثيل لا حقيقة التحديد"[٢]

ولعل الأقرب للسياق هو أن التمثيل باليد لقدر تلك الفتحة هو لغرض تقريب المعنى، وبيان الخطر بظهور علامة من علامات الساعة وهو اقتراب موعد خروج هؤلاء القوم، يساعد على فهم هذا استهلاله . صلى الله عليه وسلم . بهاتين العبارتين " لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ" "وَيْلٌ لِلْعَرَبِ مِنْ شَرٍّ قَدِ اقْتَرَبَ" اللتين توحيان بالفزع الشديد والخطر الداهم الذي أحسَّ به، وخافه على أمته، فجملة " لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ" تقال عند المصيبة، وعند الحزن الشديد ، وجملة "وَيْلٌ لِلْعَرَبِ مِنْ شَرٍّ قَدِ اقْتَرَبَ" تفجيع وتهويل للأمر الذي سيذكره،مما يجعل المخاطب في يقظة ووعي تام لما سيلقى إليه، وفي الوقت نفسه توحي بالإشفاق والوجل من عدم قدرة أمته على تحمل هذه الفتنة "وخصَّ الْعرب بذلك لأنَّهم كَانوا حينئذٍ معظَم من أَسلم" [٣].

وهذا التشبيه قد صور من خلاله أن هذا الردم حدث له خرق أو فتح صغير وهذا هو المراد الإخبار عنه ، وهو . أيضا . ما يحقق التخويف والتحذير ، فضلا عن أن هذا المقدار الصغير الذي عبر عنه بهذه الإشارة ليزن الأمر ، ويتناسب وما

(١) عمدة القاري ٢٢٠/٢٤

(٢) التوضيح لشرح الجامع الصحيح لابن الملقن سراج الدين أبو حفص عمر بن علي بن أحمد الشافعي المصري ٢٩٣/٣٢ ط/ دار النوادر، دمشق – سوريا الطبعة: الأولى، ١٤٢٩ هـ – ٢٠٠٨ م.

(١) مرقاة المفاتيح ٣٤٠٠/٨.

أقره القرآن الذي أنبأ عن أن اتساع هذا الفتح يعقبه اقتراب الوعد الحق وشخوص الأبصار في قول الله تعالى: {حَتَّى إِذا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ، وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذا هِيَ شاخِصَةٌ أَبْصارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظالِمِينَ} (الأنبياء: ٩٦،٩٧)

ولعل الفزع والخوف كانا يتملكانه ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويرتسمان على وجهه الشريف مما جعل أم المؤمنين ـ رضي الله عنها ـ تسأل في ذهول وإنكار وتعجب "أنهلك وفينا الصالحون؟!" وكأنها كانت تتوقع أن الفتنة والهلاك الذي يصيب الناس لا يتعدى العصاة والمذنبين؛ بل ربما يرفع البلاء بالصالحين، فكانت الإجابة على غير ما تتوقع "نعم إذا كثر الخبث"، فهذا إقرار منه صلى الله علي وسلم بهلاك الصالح مع الطالح عند عموم الأرض بالفتن، لكن يبعثوا على نياتهم.

٤ـ في حديثه عن قرب الساعة:

"عَنْ أَنَسٍ ـ رضي الله عنه ـ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ –صلى الله عليه وسلم– :« بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةُ كَهَاتَيْنِ . قَالَ وَضَمَّ السَّبَّابَةَ وَالْوُسْطَى".

في هذا الحديث الموجز إيجاز البليغ الحصيف، صور ـ صلى الله عليه وسلم ـ قرب يوم القيامة، ودنو أجل هذه الدنيا، بعبارة واحدة تصاحبها إشارة بيده، فبينت المعنى وأوضحت المراد وأغنت عن كثير من الشرح والتوضيح، وكيف لا؟! وهو الذي أوتي جوامع الكلم، ودانت له أزِمَّة البلاغة وخضع له عنان البيان، فإشارة باليد مقرونة بكلمة واحدة، أغنت ووفت بالمراد ووصل المعنى إلى الأذهان، "فقد

تكون الإشارة في كثير من أبواب الفقه أقوى من الكلام .. ومتى يبلغ البيان إلى ما بلغت إليه الإشارة بما بينهما من مقدار زيادة الوسطى على السبابة؟!" [١]

والحديث تمثيل لشدة قربهما، فلا شيء بين النبي – صلى الله عليه وسلم – والساعة، كما أنه ليس بين السبابة والوسطى أصبع أخرى، وأن كل واحدة متصلةٌ بصاحبتها ، وقد تكون لتقريب ما بينهما من المدة تقذَر بقدر ما بين السبابة والوسطى من الارتفاع.

وقد أُعرب قوله:(والساعة) بالفتح والضم . فأما الفتح ؛ فهو على المفعول معه، والرفع على أنه معطوف على التاء في بُعثت ، وفصل بينهما بـ " أنا " توكيدًا للضمير؛ على ما هو الأحسن عند النحويين، وقد اختار بعضهم النصب بناءً على أن التشبيه وقع بملاصقة الإصبعين واتصالهما، واختار آخرون الرفع بناءً على أن التشبيه وقع بالتفاوت الذي بين رؤوسهما، ويعني أن ما بين زمان النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقيام الساعة قريب؛ كقرب السَّبابة من الوسطى ، وهذا أوقع .[٢]

قال القاضي عياض" أشار بهذا الحديث إلى قلة المدة بينه وبين الساعة والتفاوت إما في المجاورة وإما في قدر ما بينهما .

وقال بن التين: اختلف في معنى قوله كهاتين، فقيل: كما بين السبابة والوسطى في الطول.

---

(١)الكواكب الدراري في شرح صحيح البخاري لمحمد بن يوسف بن علي بن سعيد، شمس الدين الكرماني ٢١٦/١٩ ط/دار إحياء التراث العربي، بيروت–لبنان الطبعة أولى: ١٣٥٦هـ – ١٩٣٧م

(٢) انظر المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم ٣٧٩/٣.

وقيل: المعنى ليس بينه وبينها نبي، وقال القرطبي: حاصل الحديث تقريب أمر الساعة وسرعة مجيئها، وقال البيضاوي: معناه أن نسبة تقدم البعثة النبوية على قيام الساعة كنسبة فضل إحدى الأصبعين على الأخرى . وقيل: المراد استمرار دعوته لا تفترق إحداهما عن الأخرى كما أن الأصبعين لا تفترق إحداهما عن الأخرى . (١)

وجميع الآراء التي سبقت تدور حول معنى واحد، وهو قصر عمر الدنيا وقرب انتهائها، حتى إن مبعث النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ نفسه من علامات يوم القيامة، وقد أدت إشارته صلى الله عليه وسلم ـ بالسبابة والوسطى المعنى من أقرب طريق، فليس ثمة عبارة توحي بالمبالغة في قرب الساعة من لفظة(هكذا) مقرونة بالإشارة بالأصبعين المتجاورين، فلو نظرنا من زاوية من قالوا برواية النصب (بعثت أنا والساعةَ) فتكون الواو للمعية والساعة مفعول معه، كأن المعنى بعثت مع الساعة، فكأن الساعة كائنة مع بعثته ـ صلى الله عليه وسلم ـ مبالغة في تحقق وقوعها وانعدام المسافة بينهما كناية عن القرب الشديد ، ثم تأتي الإشارة (هكذا) تأكيدا لمعنى التلاصق والتقارب الموجود بين بعثته ـ صلى الله عليه وسلم ـ والساعة .

وإذا نظرنا من زاوية من قال برواية الرفع (بعثت أنا والساعةُ هكذا) نجد أن التشبيه قد تحقق بالإشارة فتكون (الساعة) معطوفة على الضمير المتصل بالفعل (تاء الفاعل) ثم تأتي الصورة التشبيهية متمثلة في قوله (هكذا) فتتم الصورة ويكون احتمال تصوير المسافة الزمنية بينه وبين الساعة بالمسافة بين طول الإصبعين

(١) انظر تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي لمحمد عبد الرحمن بن عبد الرحيم المباركفوري ٦/٣٨٠ ط/ دار الكتب العلمية – بيروت.

حيث تزيد الوسطى عن السبابة بمقدار بسيط، فيكون وجه الشبه المنتزع من الطرفين هو قصر المسافة وسرعة انقضائها.

ويمكن أن يكون المقصود هو حاصل الصورتين، فيكون المراد التلاصق والتجاور الذي يوحي به تجاور الأصبعين، حيث لا نبي بعده صلى الله عليه وسلم، فلا فاصل بينه وبين الساعة، مع الصورة الأخرى التي توحي بها قرب المسافة بين رأسي الأصبعين، حيث قرب وقوعها، ومبعثه صلى الله عليه وسلم من علاماتها.

لذا كان اختيار الإشارة بالسبابة والوسطى للتمثيل على دنو الساعة أقرب الطرق في الدلالة على المعنى،وترسيخه في ذهن السامع بوضوح تام وإيجاز بديع.

٥ ـ في سياق الحديث عن الفترة بين النفختين:

عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ –صلى الله عليه وسلم– :" مَا بَيْنَ النَّفْخَتَيْنِ أَرْبَعُونَ. قَالُوا: يَا أَبَا هُرَيْرَةَ، أَرْبَعُونَ يَوْمًا؟ قَالَ: أَبَيْتُ. قَالُوا: أَرْبَعُونَ شَهْرًا؟ قَالَ: أَبَيْتُ. قَالُوا: أَرْبَعُونَ سَنَةً؟ قَالَ أَبَيْتُ. ثُمَّ يُنْزِلُ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيَنْبُتُونَ كَمَا يَنْبُتُ الْبَقْلُ. قَالَ: وَلَيْسَ مِنَ الإِنْسَانِ شيء إِلاَّ يَبْلَى إِلاَّ عَظْمًا وَاحِدًا وَهُوَ عَجْبُ الذَّنَبِ وَمِنْهُ يُرَكَّبُ الْخَلْقُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ". (١)

قوله (بين النفختين) أي: نفخة الصعق ونفخة البعث (أربعون قالوا) لم يعين المصنف أسماء القائلين ولا أحداً منهم (يا أبا هريرة أربعون يوماً) بتقدير همزة قبله (قال أبيت) أي: امتنعت أن أجزم بتعيينها كذلك. وكذا في قول (قالوا أربعون عاماً قال أبيت قالوا أربعون شهراً قال أبيت) والحاصل: أن مراده الامتناع من الجزم بأن المراد يوماً أو شهراً أو عاماً، بل الذي يجزم به أنها أربعون مجملة، وقد جاءت مفسرة من رواية غيره في غير مسلم أربعون سنة، (ويبلى كل شيء من الإنسان)

(١) صحيح مسلم ٨/ ٢١٠ باب ما بين النفختين.

من لحم وعصب وعروق وعظم وظفر وشعر (إلا عَجْب الذنب) هو بفتح العين المهملة وسكون الجيم أي: العظم اللطيف الذي في أسفل الصلب، وهو رأس العصعص، (ثم) للترتيب في الذكر مع التراخي، ليدل على طول الفترة بين النفختين، (ينزل الله من السماء ماء) على صورة المني (فينبتون) أي: من عجب الذنب بأن تجمع إليه أجزاؤه شيئاً فشيئاً (كما ينبت البقل) شيئاً فشيئاً.(١)

الصورة التشبيهية هنا توضح أمرًا غيبيًا، ربما يشك فيه بعض الناس، وهو كيفية إعادة أجساد البشر بعد أن رمت وبليت وتحولت إلى تراب، وربما اختلطت بعض الأجساد ببعض، وربما تناثرت بعض الأجساد في أماكن متفرقة،وحتى يسهل على العقل إدراك الأمر وتصوره، اختارت لغة الحديث الطرف الثاني ـ وهو المشبه به ـ من واقع حياتهم ، وهو خروج النبات الأخضر من نواة البقلة الصماء، فلو شققت البقلة قبل سقيها بالماء لم تجد داخلها ما يدل على خروج هذا النبات اليانع منها، لكنها قدرة الله ـ تعالى ـ المطلقة، شقت هذه البقلة وأخرجت منها نباتًا يانعًا دبَّت فيه الحياة، فإذا ما استوعب العقل هذه العملية عن طريق المشاهدة المتكررة لهذا البقل، واستطاع أن يقبل خروج الحياة، وتحول البقل الأصم إلى زرع يحمل الثمر، عندما يدرك ذلك يستطيع أن يقيس على ذلك كيفية إعادة الأجساد إلى حالها، وطريقة بناء الجسم مرة أخرى ـ لاسيما إذا وضع في حسبانه قدرة الله المطلقة ـ عن طريق إنزال ماء الحياة على الجزئية التي منها منشأ الإنسان، وهي عجب الذنب.

ولعل من أوجه المناسبة بين الطرفين، أن الإنسان في أصل خلقه الأول كان ترابا والبقل ينبت وتدب فيه الحياة إذا وضع في التراب وسقي بالماء.

---

(١) انظر دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين لمحمد علي بن محمد بن علان الشافعي ٦٥٩/٨ ط/دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان الطبعة: الرابعة، ١٤٢٥ هـ – ٢٠٠٤ م.

أيضا: من أوجه المناسبة بين الطرفين هذا التدرج في النشأة والفترة الزمنية التي يستغرقها حتى يكتمل، فالنبات الذي يخرج من البقل ينمو شيئا فشيئا حتى يصل إلى مرحلة النضج والاكتمال، كذلك إعادة الأجساد مرة أخرى إلى أصلها يأخذ نفس المراحل فتعود شيئا فشيئا.

أيضا: من أوجه التشابه بين الطرفين ، التقارب في المقدار الذي تنشأ منه الحياة، فعجب الذنب الذي ينزل عليه الماء من السماء لتنبت منه الأجساد يقارب حجم حبة البقل التي تخرج منها هذه النبتة.

وعلى الجملة: فهذه صورة تقريبية يقاس منها الغائب غير المشاهد، على الحاضر الملموس، المدرك بالعين المجردة، حتى يستطيع العقل تصور الحالة التي تعاد بها الأجساد، وهذا من بديع بلاغته صلى الله عليه وسلم . حين يقرب المعاني الغيبية التي قد يصعب تصورها عن طريق جلب الصور المدركة بالحس ولا يستطيع عاقل إنكارها، أو التشكيك في وجودها.

٦ـ فضل العبادة في زمن الفتن:

هذا حديث يبين فيه عليه الصلاة والسلام فضل العبادة في أمواج الفتنة إذا اختلطت أمور الناس، روى الإمام مسلم . رحمه الله . قال:

حَدَّثَنَاهُ قُتَيْبَةُ بْنُ سَعِيدٍ، حَدَّثَنَا حَمَّادٌ، عَنِ الْمُعَلَّى بْنِ زِيَادٍ، رَدَّهُ إِلَى مُعَاوِيَةَ بْنِ قُرَّةَ، رَدَّهُ إِلَى مَعْقِلِ بْنِ يَسَارٍ، رَدَّهُ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "الْعِبَادَةُ فِي الْهَرْجِ كَهِجْرَةٍ إِلَيَّ". (١)

(١) صحيح مسلم ٢٠٨/٨ باب فضل العبادة في الهرج.

العبادة هي الأمر الذي يجعل العبد على صلة بخالقه، وبوجودها يتحقق معنى العبودية

الله ـ تبارك وتعالى ـ وفي هذا الحديث يتبين لنا فضلها في هذه الظروف التي يصعب على العبد الإتيان بها على الوجه الأكمل.

فحين تشتعل الفتن كالنار في الهشيم، وأمور الناس قد اختلطت، والمحافظة على الأمور الدينية بدأت تضعف وتضمحل، فيجعل عليه الصلاة والسلام فضل العبادة في هذه الأحوال والظروف كفضل الهجرة إليه صلى الله عليه وسلم، ترغيبا وجبرا لخاطر ذلك العبد المؤمن ليثبت على منهج الله.

قال القرطبي: "المتمسك في ذلك الوقت ، والمنقطع إليها ، المنعزل عن الناس ، أجره كأجر المهاجر إلى النبيِّ – صلى الله عليه وسلم – ؛ لأنه ناسبه من حيث أن المهاجر فرَّ بدينه ممن يصده عنه للاعتصام بالنبيِّ – صلى الله عليه وسلم – وكذا هذا المنقطع للعبادة فرَّ من الناس بدينه إلى الاعتصام بعبادة ربه ، فهو في الحقيقة قد هاجر إلى ربه، وفرَّ من جميع خلقه". (١)

فالمشبه : العبادة في الفتنة عند اختلاط أمور الناس .

والمشبه به :الهجرة إليه ـ عليه الصلاة والسلام.

ووجه الشبه بين الطرفين : عظم الأجر في كلٍ.

---

(١) تطريز رياض الصالحين لفيصل بن عبد العزيز الحريملي النجدي ص ٧٤٧ تحقيق: د. عبد العزيز بن عبد الله بن إبراهيم الزير آل حمد ،ط/ دار العاصمة للنشر والتوزيع، الرياض الطبعة: الأولى، ١٤٢٣ هـ .

فالصورة التشبيهية هنا تهدف إلى بيان فضل العبادة في هذا الوقت، وأجر مخالفة الهوى والشيطان في تلك الظروف التي كثُر فيها القتل والنهب والزنا وكل ما يغضب الله ـ تعالى ـ لأن الناس ينشغلون ويغفلون عن عبادة الله في مثل هذه الظروف التي ضعف فيها الوازع الديني.

ولعل وجه المناسبة بين الطرفين الغربة التي يجدها المؤمن في كل، فوجود المؤمن في زمن الفتن يشعره بغربته وعزلته بين الناس، فهو لا يستطيع أن يتعايش معهم ولا يشعر بالأمان بينهم، لذا تجده قابضا على دينه، خائفا من تسرب الفتن إلى قلبه، فهو في هذه الحالة يشبه الفارَّ بدينه من أرض الكفر تاركا وراءه أهله وماله وموطنه، لعله ينجو بنفسه ودينه، لذا كان له من الأجر مثل أجره.

كما يضاف إلى ما سبق ما في الهجرة إليه من المعاناة والمشقة ، التي تتلاءم مع ما يعانيه من يتمسك بالدين، خاصة في زمن الهرج الذي يكثر فيه الاعتداء على الناس بالقتل والتنكيل لأقل الأسباب وأهونها.

قال ابن العربي: "وجه تمثيله بالهجرة أن الزمن الأول كان الناس يفرون فيه من دار الكفر وأهله إلى دار الإيمان وأهله فإذا وقعت الفتن تعين على المرء أن يفر بدينه من الفتن إلى العبادة ويهجر أولئك الأقوام في تلك الحالة وهو أحد أقسام الهجرة".(١)

(١) التَّنويرُ شَرْحُ الجَامِعِ الصَّغِيرِ لمحمد بن إسماعيل بن صلاح بن محمد الحسني، الكحلاني ثم الصنعاني ٣٦٩/٧ تحقيق: د.محمَّد إسحاق محمَّد إبراهيم ط/مكتبة دار السلام، الرياض الطبعة: الأولى ، ١٤٣٢ هـ - ٢٠١١.

الخاتمة

الحمد لله أولا وآخرا، له الحمد في الأولى والآخرة وهو الحكيم الخبير، وأشهد أن لا إله إلا الله، لا مُنْجي من الفتن إلا هو، ولا ملجأ في الكربات إلا إليه، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، حذرنا من الفتن ودلنا على طريق النجاة، فالمعصوم من أطاعه والهالك من عصاه، صلوات ربي وتسليماته عليه، وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا.

وبعد...

فإن الصور التشبيهية التي مرت بنا خلال هذا البحث تلج بالمعنى إلى أعماق الروح، فتزيده وضوحاً وجلاءً، وتدخل به إلى الذهن من أقرب الطرق وأوضح

المسالك فتزيده رسوخا ومتانة، وذلك لدقة التلاؤم والتناسب المستخدم منه صلى الله عليه وسلم في إيراد الصور المعبرة عن المعنى، والتي اختير فيها الطرف الثاني (المشبه به) بعناية كبيرة، ليكون مرآة ساطعة تعكس المعنى بشفافية تامة، وإيحاءات متجددة، كلما قلبت فيها أبدت لك أسرار جديدة، ومعاني رقراقة كانت تتوارى خلف ظلال هذه الصورة التشبيهية.

ولعل مرجع ذلك يعود إلى ما للقرآن الكريم من أثر واضح في الأسلوب البياني للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وبصفة خاصة في هذا البحث في حسن التلاؤم بين طرفي التشبيه، ومدى الدقة في مطابقة المشبه للمشبه به في عرض المعنى المقصود.

وهذا ما يدفعني إلى القول بعدة أمور لوحظت خلال هذا البحث:

أولها: أن بعض تشبيهاته صلى الله عليه وسلم في كتاب الفتن مأخوذة من تشبيهات القرآن الكريم وناظرة إليها، مما يدل على أن القرآن والسنة النبوية يخرجان من مشكاة واحدة، كالذي نجده في حديث عرض الفتن على القلوب حين تكلم عن القلب الأبيض وتشبيهه بالصفا في القوة والملاسة ونفض الأتربة في قوله: (أَبْيَضَ مِثْلِ الصَّفَا) تجد هذا التشبيه يتآخى مع التشبيه في قوله تعالى:{فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوانٍ عَلَيْهِ تُرابٌ}الْبَقَرَة ٢٦٤ فقد تشابها في الغرض وهو عدم علوق شيء به. أو كالذي تجده في حديث الفتن كقطع الليل المظلم، في قوله: (بَادِرُوا بِالأَعْمَالِ فِتَنًا كَقِطَعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ) تجده وكأنه مأخوذ من قول الله تعالى: { وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا} (يونس ٢٧) .

ثانيها: براعته صلى الله عليه وسلم في استخدام التراكيب التشبيهية بحسب ما يقتضيه المعنى، فمثلا تراه يؤكد الصورة التشبيهية بصورة أخرها مثلها لمزيد الإيضاح والتأكيد عندما المعنى يحتاج إلى مزيد من التيقظ والانتباه، كالذي تراه في قوله:(ثُمَّ يَنَامُ النَّوْمَةَ فَتُقْبَضُ الأَمَانَةُ مِنْ قَلْبِهِ فَيَظَلُّ أَثَرُهَا مِثْلَ الْمَجْلِ كَجَمْرٍ دَحْرَجْتَهُ عَلَى رِجْلِكَ فَنَفِطَ فَتَرَاهُ مُنْتَبِرًا وَلَيْسَ فِيهِ شيء – ثُمَّ أَخَذَ حَصًى فَدَحْرَجَهُ عَلَى رِجْلِهِ) فتجده يؤكد الصورة الأولى (مِثْلَ الْمَجْلِ) بصورة أخرى وهي (كَجَمْرٍ دَحْرَجْتَهُ عَلَى رِجْلِكَ فَنَفِطَ فَتَرَاهُ مُنْتَبِرًا وَلَيْسَ فِيهِ شيء) ثم يزيد الأمر بيانا بصورة عمليه فيأخذ الحصى ويدحرجه على رجله كما وضحه الراوي (ثُمَّ أَخَذَ حَصًى فَدَحْرَجَهُ عَلَى رِجْلِهِ) وما هذا ـ في ظني ـ إلا لأن الأمر جد خطير يتطلب هذا البيان وهذا التأكيد.

ثم تراه في حالة أخرى يستغني في رسم الصورة وتبيين المعنى بما هو أقل من العبارة، حين تجده يجعل الطرف الثاني في التشبيه إشارة بيده، يجسد بها المعنى ويضعه كاملا أمام المخاطب بما لا يحتاج إلى بيان بعده، كالذي تجده في حديث يأجوج ومأجوج في قوله (فُتِحَ الْيَوْمَ مِنْ رَدْمِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مِثْلُ هَذِهِ) ويحلق بالإبهام والسبابة، أو كالذي تجده في حديث (بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةُ كَهَاتَيْنِ . قَالَ وَضَمَّ السَّبَّابَةَ وَالْوُسْطَى) فلا تجد بيانا أوضح من هذه الإشارة، التي أغنت ببيانها عن كثير من العبارات، والتي لا يحتاج معها السامع إلى استيضاح أو مزيد بيان.

ثالثها: استخدامه ـ صلى الله عليه وسلم للصور القريبة والتي تعودها الناس في حياتهم والتي لا تثير فيهم الدهشة أو الاستغراب لكثرة رؤيتهم لها، يستخدم هذه الصورة في توضيح أمر غيبي ربما يصعب على بشر ـ غير الأنبياء ـ بيانه، فيلحقه بهذه الصورة القريبة الواضحة أشد الوضوح ـ في عرف الناس ـ لتأخذ الصورة الغريبة ملامح الصورة القريبة نفسها، فيقترب المعنى من الأذهان ويستقر في القلوب، وهذا ما نجده في قوله: (ثُمَّ يُنْزِلُ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيَنْبُتُونَ كَمَا يَنْبُتُ

الْبَقْلُ) فتجده ـ صلى الله عليه وسلم ـ يستدعي هذه الصورة القريبة ليوضح بها كيفية إعادة الأجساد التي تناثرت أشلاؤها، وتطايرت ذرَّاتها ، واختلطت بتراب غيرها ، ومضى عليها غابر الدهور والأزمان، فتدرك هنا سرَّ استجلاب هذه الصورة القريبة، ومدى الحاجة إليها.

رابعها: على العكس من الصورة السابقة في قربها وتعود المخاطب عليها تراه يستخدم الصورة الغريبة التي ربما لم تسمع بها في دنيا البشر،ولا أقصد بغرابة الصورة عدم وجودها؛ وإنما أقصد تركيبها مع المشبه، لتوحي بأمر لم يتعوده الناس في تشبيهاتهم، وهذا ما تجده واضحا في وصف سرعة المسيح الدجال بقوله:(قُلْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا إِسْرَاعُهُ فِي الأَرْضِ قَالَ: كَالْغَيْثِ اسْتَدْبَرَتْهُ الرِّيحُ) فهذه صورة غير معهودة في تشبيه السرعة، ولعل غرابة الصورة توحي بغرابة المعنى والإشعار بعظم الفتنة لهذا المخلوق، والإيحاء بعموم فتنته بقع كثيرة من الأرض كما تعم غيوم التي تحركها الريح أجزاءً كبيرة من الأرض في أن واحد.

وعلى الجملة: فالأسرار خلف تشبيهاته ـ صلى الله عليه وسلم ـ كثيرة ومتجددة بتجدد أفهام المستكشفين لها، وبقدر ما يعطي الله من الفهم لمن يتعرض لها، وما بيناه في هذا البحث هو فضل عطاء من الله لا أستكثر فيه جهدا، ولا استشعر فيه فضلا لنفسي، فلله الحمد أولا وآخرا، وأستغفره لما بدر مني من سهو أو خطأ أو سوء فهم.

والله من وراء القصد وهو الهادي إلى سواء السبيل.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

فهرس المراجع والمصادر

١ـإغاثة اللهفان من مصائد الشيطان محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي المعروف بابن القيم ط: دار المعرفة – بيروت الطبعة الثانية ، ١٣٩٥ – ١٩٧٥ تحقيق : محمد حامد الفقي.

٢. أسرار البلاغة للشيخ عبد القاهر الجرجاني تحقيق محمود محمد شاكر ط: مطبعة المدني بالقاهرة، دار المدني بجدة .

٣. الإيضاح في علوم البلاغة للخطيب القزويني دار إحياء العلوم ، بيروت.

٤ـ البلاغة فنونها وأفنانها علم البيان والبديع:فضل حسن عباس الطبعة: الأولى،١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م ، دار الفرقان، عمان .

٥. تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي لمحمد عبد الرحمن بن عبد الرحيم المباركفوري ط/ دار الكتب العلمية – بيروت.

٦. التصوير الفني في الحديث النبوي د/ محمد لطفي الصباغ، طبعة المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٣هـ /١٩٨٣م

٧ـ التَّنويرُ شَرْحُ الجَامِعِ الصَّغِيرِ لمحمد بن إسماعيل بن صلاح بن محمد الحسني الصنعاني تحقيق: د. محمَّد إسحاق محمَّد إبراهيم ط: مكتبة دار السلام، الرياض .

٨. التوضيح لشرح الجامع الصحيح لابن الملقن سراج الدين أبو حفص عمر بن علي بن أحمد الشافعي المصري ط/ دار النوادر، دمشق – سوريا الطبعة: الأولى، ١٤٢٩ هـ – ٢٠٠٨ م.

٩ـ صحيح مسلم (أبو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري) ط: دار الجيل بيروت.

١٠. صفوة التفاسير لمحمد علي الصابوني ط: دار الصابوني للطباعة والنشر والتوزيع القاهرة.

١١ـ شرح الأربعين النووية :محمد بن صالح العثيمين الطبعة: الأولى ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م ، دار الثريا، الرياض .

١٢ـ شرح الطيبي على مشكاة المصابيح المسمى بـ (الكاشف عن حقائق السنن) تحقيق د. عبد الحميد هنداوي ط: مكتبة نزار مصطفى الباز (مكة المكرمة – الرياض .

١٣. شَرح صحِيح مُسلِمِ المسمى إِكمَالُ المُعْلِمِ بفَوَائِدِ مُسْلِمِ لِلقاضِى عياض تحقيق الدكتور يحْيَى إِسْمَاعِيل .ط: دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع، مصر الطبعة: الأولى، ١٤١٩ هـ – ١٩٩٨ م .

١٤ـ شرح النووي على صحيح مسلم (أبو زكريا يحيى بن شرف بن مري النووي) دار إحياء التراث العربي – بيروت الطبعة الطبعة الثانية ، ١٣٩٢هـ.

١٥. عون المعبود شرح سنن أبي داود، ومعه حاشية ابن القيم: تهذيب سنن أبي داود وإيضاح علله ومشكلاته لمحمد أشرف بن أمير بن علي بن حيدر، أبو عبد الرحمن، شرف الحق، الصديقي، العظيم آبادي ط: دار الكتب العلمية – بيروت الطبعة: الثانية.

١٦. الفائق في غريب الحديث لمحمود بن عمر الزمخشري ط : دار المعرفة – لبنان الطبعة الثانية تحقيق : علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم .

١٧ـ الكاشف عن حقائق السنن :الطيبي حسين بن محمد بن عبد الله، تحقيق: المفتي عبد الغفار وآخرون، الطبعة: الأولى، ١٤١٣ هـ/ ١٩٩٣ م، إدارة القرآن والعلوم الإسلامية، كراتشي – باكستان .

١٨. كشف المشكل من حديث الصحيحين لجمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي تحقيق: علي حسين البوابط: دار الوطن – الرياض .

١٩ـ الكواكب الدراري في شرح صحيح البخاري. لمحمد بن يوسف شمس الدين الكرماني ط/ دار إحياء التراث العربي، بيروت، طبعة ثانية: ١٤٠١هـ – ١٩٨١م .

٢٠ـ لسان العرب لمحمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري ط : دار صادر – بيروت الطبعة الأولى.

٢١ـ مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح ط دار الفكر، بيروت – لبنان الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ – ٢٠٠٢م .

٢٢ـ النهاية في غريب الحديث والأثر لأبي السعادات المبارك بن محمد الجزري، ط:المكتبة العلمية – بيروت ١٩٧٩م تحقيق : طاهر أحمد الزاوي – محمود طناحي.

٢٣. مقاييس اللغة لابن فارس مطبعة :دار الفكر١٣٩٩هـ – ١٩٧٩م

٢٤ـ من بلاغة السنة :محمد بيلو أحمد أبو بكر الطبعة: بدون ، مطبعة أطلس .

٢٥ـمن روائع الأدب النبوي :كامل سلامة الدقس، الطبعة: الثانية ، دار الشروق.